مطبوعات كتابي

يصدرها
حلمي مراد

أروع ما كتب
اناتول فرانس
عن الثورة الفرنسية

الآلهة عطشى!



أناتول فرانس:

الآلهة عطشى!



LES DIEUX ONT SOIF

PAR

ANATOLE FRANCE

الثمن ١٢ قرشا

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليهـــا كتاب جديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها خمسة وستون كتابا ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو » ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عـــادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنـوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحـــوالة بريدية .

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الخامس والستون

الآلهة عطشى

الجزء الثانى

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

ملخص الجزء الاول

• **كان** « ايفاريست جاميلان » — الرسام الشاب — من الوطنيين المتحمسين للثورة ، الناقمين على الملكية والاقطاع .. وكان شديد التشبث بالمثل العليا ، وتعاليم « جان جاك روسو » واضرابه ممن كانت فلسفاتهم وانتقاداتهم من عوامل تشكيل الثورة الفرنسية .. **على ان الفن والسياسة لم يستطيعا ان يشغلاه عن « ايلودى »** ، ابنة تاجر اللوحات الفنية « بليز » ، الذى كان يبدى التحمس للثورة ، وهو لا يخدم سوى اغراضه ، ولا يسعى لغير الكسب من وراء توريد بعض المهمات للجيش ..

واحب « ايفاريست » الفتاة ، وتدله فى هواها ، وصار لا يجد راحة الا فى احضانها ، عندما يتسلل الى غرفتها الزرقاء ، فوق متجر ابيها « لامور بانتر » .. ومع ان « ايلودى » صارحت « ايفاريست » يوما بأن شابا غرر بها فى الماضى ، فان هذا التصريح لم يزده الا تعلقا بها .. بل انه أوحى اليه باتجاه آخر ، فبدلا من ان يزدريها ، تصور انها ضحية اقطاعى من الذين هاجروا فرنسا مع مطلع الثورة ثم تسللوا عائدين اليها ، واندسوا بين القوم ليثيروهم ضد الزعماء الثائرين لحساب الاجانب ..

ومن ناحية اخرى ، فانه لم يغفر قط لشقيقته الوحيدة « جولى » نفس زلة حبيبته .. فان « جولى » كانت قد

احبت شابا من النبلاء ، وهجرت اهلها من اجله ، ثم هاجرت معه الى انجلترا .

وأخذت الأهواء تلعب بالثورة الفرنسية ، وبينما تكشف حماس بعض زعمائها عن مطامع خاصة وأهداف شخصية ، كان التطرف يدفع الشعب الى الفوضى والالحاد والتدهور الخلقى .. وبدأ الزعماء يتناحرون ويزج بعضهم ببعض الى المقصلة ، حتى انتهت السلطات الى « روبسبيير » ، الذى عرف بأنه « المعصوم من الفساد » .. وبدات قوات الثورة تتغلب على الجيوش الاجنبية التى كانت محدقة بالبلاد .

واستطاعت المواطنة « روشـمور » ـ التى كانت من نبيلات الماضى ، وربيبات القصور الملكية ـ ان تجد لايفاريست منصبا كمحلف فى محكمة الثورة .. وما كانت تبغى ـ فى الواقع ـ سوى استمالته ليكون ستارا لها ، اذ كانت تكاتب الملكيين واعداء الثورة فى الخارج ، وكانت تتآمر مع رجال المال الذين كانوا يدبرون الدسائس لهدم الاقتصاد الوطنى ..

وعلى سلم دار « ايفاريست » ، التقت « روشـمور » بالشيخ بروتو ، الذى كان يوما ملتـزما للضرائب ، وثريا اقطاعيا ، فلما دالت دولة الملكية ، قنع بصناعة الدمى واللعب ، وبقراءة ديوان « لوكريس » ، وبالتأملات الفلسفية .. ولقد كان « بروتو » يوما خليلا لروشمور ، لذلك لم تر بأسا من ان تصعد مرة الى مسكنه الحقير ، فوق مسكن «ايفاريست» ، عندما جاءت لزيارة هذا ولم تجده ..

وسألته وهى محسورة على كل ما يجرى فى البلاد : « ما

رأيك فى كل هذا ؟ » ، فصارحها بأنه لم يكن يعتقد ان الحلفاء يستطيعون الوصــول الى باريس .. **وقال انه كان يرى ان محكمة الثورة وحكم الارهاب سيوديان بنظام الحكم الذى اقامهمـا ..** وأردف : « ان قضاتنا بقبعاتهم ذات الريش الاسود ، يعملون على طريقة ذلك الـ « وليم شكسبير » ، الذى يعتز به الانجليز ، والذى كان يقحم على اشد المناظـر اثارة للأسى – فى تمثيلياته – فكاهات سمجة ! »

فتساءلت المواطنة : « حســنا يا موريس ، وهل ما زلت سعيداً فى غرامك ؟ » .. فأجاب بروتو : « واحسرتاه ! .. ان الحمامات يطرن الى البرج الابيض ، ولم يعدن يقفن على البرج المتهدم ! »

– انك لم تتغير قط !.. الى اللقاء يا صديقى !

والآن .. تستطيع ان تستانف قراءة هذه القصــة الرائعة ، التى تعتبر خير سجل دقيق للثورة الفرنسية ، والتى حفلت بالعواطف والاحقاد ، والمآسى والمهازل ، والدموع والبسمات ..

***

فى ذلك المساء ، كان ضابط الفرسان « هنرى » فى زيارة لمدام دى روشمور – فى دارها – دون ما دعوة ، فوجدها تلصق اطراف رسالة قرأ عليها عنوان المواطن « رولين » فى (فيرنون) . وادرك انها رسالة لانجلترا .. فقد كان «رولين» يتسلم رسائل مدام دى روشمور من حوذى مركبة البريد ، فيرسلها الى (دييب) بوساطة امرأة تتجر فى السمك . وفى الليل ، ينقلها صاحب أحد القوارب الى سفينة بريطانية تحملها الى الساحل المقابل .. فيتسلمها فى لندن مهاجر يدعى المسيو «ديكسبيللى» ، ويبلغها – اذا وجدها نافعة – الى بلاط « سان جيمس » .

وكان « هنرى » شابا ، وجميلا .. فما جمع « اخيل » – حين ارتدى الدرع التى اهداه اياها « اوليس » (٦٤) – ما جمع « هنرى » من بهاء وقوة . ولكن المواطنة روشمور – التى كانت قد فطنت من عهد قريب الى مفاتن بطل الغوغاء الشاب – حولت عنه نظراتها وفكرها ، اذ كانت قد علمت انه – وهو الذى يتهمه اليعاقبة بالتطرف والمغالاة – قد يجتلب اليها الشبهات ، ويوردها موارد الهلاك . وكان هنرى يشعر بأن التحول عن حب مدام روشمور لم يكن فوق طاقته ، بيد انه كان يستاء من انها لم تعد تكبره وتنزله منزلة رفيعة . فقد كان يعول عليها لسد بعض نفقات اقتضتها منه خدمة الجمهورية !.. وكان قد فكر فى جموح النساء ، وكيف انهن ينقلبن سريعا ، من اشد الهوى احتداما ، الى اشد الفتور الذى لا مبرر له .. وكيف يسهل عليهن ان يضحين بالشخص بعد ان يكن مدلهات بهواه ، وان يضيعن الرجل بعد ان يكن قد عبدنه !.. ومن ثم ساوره هاجس فى ان هذه الخلابة « لويز » قد تتمكن يوما من ان تلقى به فى السجن لكى تتخلص منه . واوحى اليه دهاؤه ان يعود الى

---

(٦٤) من أساطير الاغريق فى « الالياذة » ، التى نشرتها « مطبوعات كتابى »

غزو هذا الجمال النافر . ومن أجل هذا أقبل مسلحا بكل مفاتنه .. وراح يقترب منها ثم ينأى عنها ، ويعاود السعى اليها ثم يدبر ، متبعا قواعد الاغـراء فى المراقص . وما لبث أن ألقى بنفسه فى مقعد وثير ، وبصوته الذى لا يقاوم ـ ذلك الصوت الذى كان يتغلغل الى شغاف قلوب النساء ـ راح يحدثها عن الطبيعة ، وعن الوحدة ، وعرض عليها ـ وهو يتنهد ـ نزهة فى (ايرمنونفيل) .

وفى تلك الاثناء ، عزفت بضع نغمات على قيثارتها ، وألقت حولها نظرات طافحة بالضيق والملل . وفجأة ، تبدت على « هنرى » امارات التجهم والعزم ، وانبأها بأنه مسـافر لينضم الى الجيش ، ولن يلبث بعـد ايام ان يكون امام (موبيج) .

وهزت رأسها ، دون ان تبدى ريبا أو دهشة ..

ـ اتهنئيننى بهذا القرار ؟

ـ أجل ، أهنئك .

كانت فى انتظار صديق جديد يروق لها الى أقصى الدرجات .. وكانت ترجو ان تنـال منه فوائد عظيمة . فقد كان مزيجـا من كل هؤلاء مجتمعين : « ميرابو » وقد بعث من جديد ، « ودانتون » وقد نظف من الوحل واصبح متعهدا من الموردين للجيش ، وأسدا يدعو الى القاء جميع الوطنيين فى نهر (السين) .. وكانت تترقب ان يدق الجرس ـ فى اية لحظة ـ فكانت ترتعش .

ولكى تصرف « هنرى » لاذت بالصمت .. وتثاءبت ، ثم قلبت بعض الاوراق ، وعادت للتثـاؤب . واذ رأت انه لم ينصرف ، قالت انها خارجة الى دورة المياه . فهتف فى انفعال : « وداعا يا لويز !.. هل سترينني ثانية ؟ »

وعبثت يداه فى درج مكتبها المفتـوح .. وما ان بات فى الطريق ، حتى فتح الرسالة الموجهة الى المواطن « رولين » ،

وراح يقرأها باهتمام . فقد كانت تشتمل – فى الواقع – على صورة عجيبة لما كانت عليه الروح العامة فى فرنسا .. وكان فيها حديث عن الملكة ، وعن الممثلة « تيفينان » ، وعن محكمة الثورة ، وذلك الكلام الذى اءتمنها عليه « بروتو ديزيليت » الطبيب .

واذ اتم قراءة الخطاب ، ورده الى جيبه ، تردد بضع لحظات ، ثم تحول كمن استقر على رأى وقال فى نفسه ان الخير فى العجلة ، فاتجه صوب « التويلرى » ، ونفذ الى الحجرة الداخلية فى رئاسة الامن العام .

***

فى ذلك اليوم ، وفى الساعة الثالثة من بعد الظهر ، جلس « ايفاريست جاميلان » على اريكة المحلفين مع زملائه الاربعة عشر ، الذين عرفه فيهم اناسا بسطاء فى الغالب ، مخلصين ، وطنيين .. علماء كانوا أو فنانين أو صناعا . كان بينهم مصور بالالوان مثله ، ورسام – وكلاهما ملىء بالمواهب – وجراح ، واسكافى ، ومركيز سابق ابدى براهين عظيمة على وطنيته ، ومطبعى ، وتجار صغار .. وقصارى القول انهم كانوا نخبة تمثل اهل باريس .. وكانوا يجلسون فريق منهم فى زى العامل ، ومنهم من كان فى زى البورجوازى .. وبعضهم قد ارسل ثلة من الشعر على قفاه ، وبعض قد قص شعره من امام اكثر منه من وراء .. وبينهم من أمال القبعة المثلثة على عينيه ، ومن ارتدى قبعة مستديرة ازاحها الى مؤخر الراس ، ومن ارتدى قلنسوة حمراء غطت اذنيه .. فريق ارتدى سترة وسروالا ، على نمط الزمن الغابر .. وبعضهم ارتدى السترة القصيرة (الكارمانيول) والسروال « البنطلون » المخطط ، على غرار « السانكيلوت » .. ومنهم من انتعلوا الأحذية ذات الرقاب العالية « الطزلك » ، ومن لبسوا أحذية ذات اقفال جانبية « ابزيم »

ومن غيبوا أقدامهم فى أحذية ذات نعال خشبية .. كانوا يعرضون على أجسامهم كافةالازياء المتباينةالتى كان الرجال يرتدونها اذذاك . واذ كانوا قد جلسوا مجلسهم هذا مرات عدة ، فقد بدوا مطمئنين على الاريكة الخشبية ، حتى لقد غبطهم جاميلان سكينة نفوسهم ، اذ كان قلبه يخفق ، واذناه تسمعان طنينا ، وعيناه تغيمان ، فكل ما يحيط به يتراءى ملفوفا فى غشاء من ضباب .

وعندما أعلن الحاجب افتتاح الجلسة ، اتخذ ثلاثة من القضاة مجلسهم على منصة صغيرة ، أمام منضدة خضراء . وكانوا يرتدون قبعات ذات أشرطة حريرية ، تعلوها ريشات سوداء كبيرة ، واوشحة القضاة تعلوها أشرطة بألوان العلم الثلاثة ، يتدلى منها على الصدور رصائع (ميداليات) فضية ثقيلة . وجلس أمامهم — أسفل المنصة — نائب المدعى العام فى زى مشابه ، بينما جلس كاتب الجلسة بين هيئة المحكمة ومقعد المتهم الشاغر . ورأى جاميلان ان هؤلاء الرجال كانوا يختلفون عن أولئك الذين رآهم فى المكان من قبل .. فقد لاحوا أكثر جمالا ووقارا وروعة ، وان اقبلوا على التصرفات العادية المألوفة : فمنهم من راح يقلب الاوراق ، 'و من أخذ يستدعى أحد الحجاب ، أو من مال الى الامام ليستمع الى كلمة من أحد المحلفين أو أحد ضباط المحكمة .

وكانت ألواح حقوق الانسان معلقة فوق رؤوس القضاة .. والى يمينهم والى يسارهم — بجوار الجدران الاقطاعية القديمة — قام تمثالان نصفيان لبلتييه سان فارج ، ومارا. وفى أقصى طرف القاعة المواجه لمقعد المحلفين ، كانت مقاعد محامى الشعب ، وقد ملأت النساء الصف الاول ، وهن — سواء الشقراوات منهن أو ذوات الشعور السوداء أو السمراوات — يرتدين قلنسوات عالية ذات حواف مثناة (مكشكشة) تلقى ظلالا على وجناتهن ..

وعلى صدورهن – التى أضفت عليها « الموضة » مظهر ما للمرضع من اثداء ممتلئة – كان طرفا شال أبيض يتقاطعان ، ويبدو بينهما صدر مرولة زرقاء . وكن يعقدن أذرعهن على حواف حواجز المقاعد . وخلفهن ، كان المواطنون يتراءون متناثرين على المقاعد ، وقد اكتسوا تلك الازياء المتباينة ، التى كانت تخلع على الجموع مظهرا غريبا وأخاذا . والى اليمين – من ناحية المدخل ، وخلف حاجز متين – كان ثمة فراغ وقف فيه الجمهور الذى كان – فى هذه المرة – غير كبير العدد ، فقد كانت القضية المعروضة فى هذا القسم من المحكمة ، لا تهم سوى عدد ضئيل من النظارة ، وما من شك فى أن الاقسام الاخرى – التى كانت تعقد جلساتها فى ذلك الوقت – كانت تنظر فى قضايا أكثر استثارة لعواطف الناس .

وكان هذا ما طامن نفس جاميلان ، الذى كان ضعيف الجنان ، لا يحتمل جو الجلسات الكبرى المحتدم . وكانت عيناه تتجهان الى اتفه التفصيلات ، حتى لقد لمح قطعة القطن التى كانت فى أذن كاتب الجلسة ، وبقعة مداد على ملف نائب المدعى العام . وكان يرى – وكأنه ينظر خلال عدسة مكبرة – رؤوس الاعمدة التى نحتت فى زمن ضاع فيه كل المام بمدارس الفن القديمة ، والتى كانت ترتد بلا انقطاع ، الى ذلك المقعد العتيق ، المكسو بمخمل (اوترخت) الاحمر ، وقد ابلاه الاستعمال ، واسودت ذراعاه . وكان رجال مسلحون من الحرس الوطنى يقفون بالمداخل جميعا .

***

أخيرا ظهر المتهم يحيط به الحرس ، وأطرافه طليقة كما نص القانون . وكان رجلا فى حوالى الخمسين من عمره ، نحيلا ، يابس العود ، اسمر البشرة ، شديد الصلع ، ذا خدين غائرين وشفتين رفيعتين مكمدتين ، وقد ارتدى – على

النمط القديم ـ معطفا بلون دم البقر . وكانت عيناه تتألقان كجوهرتين ، وخداه يلمعان كأنهما مصقولان ، مما كان ينم ـ ولا شك ـ عن انه كان محموما .

وجلس .. وكانت ساقاه ـ اللتان وضع احداهما فوق الاخرى ـ نحيلتين الى درجة مفرطة ، وكفاه الكبيرتان قد تشابكت أصابعهما لتحيطا بركبته .. وكان يدعى « مارى ـ ادولف جيبرج » ، وقد اتهم بالغش فى توريد علف دواب جيش الجمهورية .. والقى قرار الاتهام على عاتقه مسئولية أعمال عديدة وخطيرة ، لم يكن بينها عمل واحد ثابت بصفة قاطعة. واذ سئل « جيبرج » أنكر أغلب هذه الاعمال ، وفسر الاخرى لصالحه . وكانت لفته دقيقة ، ولهجتـــه فاترة ، وأسلوبه ينم عن دهاء فذ ، مما أوحى بأنه كان رجلا صعب المراس . ولقد أجاب عن كل الاسئلة . وكان وجهـــه يظل جامدا ـ اذا وجه اليه القاضى سؤالا محرجا ـ وصوته هادئا معتدا ، ولكن يديه ـ اللتين كان يعقدهما على صدره ـ كانتا تختلجان بألم . ولقد لمح جاميلان هذا ، فهمس فى اذن جاره ، وكان مصورا مثله : « انظر الى ابهاميه ! »

وأفضى الشاهد الاول بوقائع خطيرة .. كان الاتهـــام بأسره يعتمد عليه . اما الشهود الذين استدعوا بعده ، فقد ادلوا ـ على عكسه ـ ببيانات فى صالح المتهم . وتحدث نائب المدعى العام بحمية ، ولكنه التزم الابهام . اما الدفاع فتكلم بلهجة صادقة ، اجتلبت على المتهم عطفا لم يعرف هو نفسه كيف يجتلبه . ورفعت الجلسة ، واجتمع المحلفون فى غرفة المداولة . وهناك ـ بعد مناقشة مبهمة صاخبة ـ انقسموا الى فريقين يكادان يتساويان فى العدد . فاجتمع أهل الرزانة ، والعقل ، والاعتدال ـ أولئك الذين لم تكن العواطف تستخفهم ـ فى أحد الجانبين ، بينما اجتمع فى الجانب الآخر ، أولئك الذين كانوا ينقادون للعواطف ، فلم يكن الجدال يؤثر فى اقناعهم ،

بل كانوا يحكمون بايحــــاء القلب .. وهؤلاء كانوا يدينون المتهمين دائما . أولئك كانوا الســذج ، الطيبين الذين لم يكونوا يفكرون فى غير انقاذ الجمهورية ، ولا يدعون شيئا آخر يثنيهم . وكان لمسلكهم تأثير قوى على جاميلان ، الذى كان يشعر بتوافق معهم .

وقال فى نفسه : « ان جيبرج هذا نذل خبيث وغد ، تلاعب بعلف خيل فرساننا . فاطلاق سراحه افلات لخائن ، وغدر بالوطن ، وتعريض بالجيش للهزيمة » . وتمثل جاميــلان فرسان الجمهورية على خيولهم الهزيلة ، تفتك بهم سيوف العدو .. « **ولكن ، ماذا لو كان جيبرج بريئا ؟..** »

واتجه فكره فجأة الى « جان بليز » ، الذى كانت الشبهات تحوم حول أمانته فى توريد الاغذية هو الآخر . وكم هنــاك من آخرين يفعلون ما فعله جيبرج وبليز ، فيمهدون للهزيمة ، ويضيعون الجمهورية !.. فلا بد من مثال يردعهم .. « **ولكن .. ماذا لو كان جيبرج بريئا ؟** »

وقال جاميلان بصوت مرتفع : « ليست هنـاك أدلة » . فأجاب رئيس المحلفين ـ وكان رجلا طيبا ، ساذجا ـ وهو يهز كتفيه : « ما من أدلة هناك .. اطلاقا » .

وأخيرا ، ظهر ان سبعة أصوات مع الادانة ، وثمانيــة مع التبرئة .

***

وعاد المحلفون الى القــاعة ، فاستؤنفت الجلسة . وكان على المحلفين ان يبرروا البواعث على قراراتهم ، فتكلم كل منهم أمام المقعد الخالى . واسهب بعضهم ، بينمــا اكتفى بعض آخر بكلمة واحدة .. وكان هناك من اطلقوا كلاما لا ينم عن ذكاء . حتى اذا حان دور جاميلان ، نهض وقال : « **ازاء جريمة كبيرة كحرمان المدافعين عن الوطن من وسائل الظفر ، لا بد من أدلة رسمية لم يتوفر لنــا شىء منهــا** » . واعان

– بأغلبية الآراء – ان المتهم غير مدان .

واقتيد « جبيرج » أمام القضاة ، وسط همهمة من النظارة طفحت بالعطف ، واشعرته بتبرئة ساحته . فاذا به يتحول رجلا آخر ، فذاب جفاف قسماته ، ولانت شفتاه ، وحف به جو من الوقار ، وفاض وجهه بالبراءة . وقرأ رئيس المحكمة – بصوت متهدج – القرار الذى أدركه مقدما ، فارتجت جنبات القاعة بالتصفيق . **والقى الشرطى – الذى أحضر جبيرج – بنفسه بين ذراعيه . ودعاه الرئيس فعانقه فى اخاء ، وقبله المحلفون . وذرف جاميلان دموعا حارة !**

وفى فناء قصر العدل – الذى كانت آخر أضواء النهار تنيره – أخذت الجموع تتدافع منفعلة . كانت دوائر المحكمة الاربع قد أصدرت ثلاثين حكما بالاعدام .. وعلى درجات السلم الكبير ، جلست مواطنات القرفصاء ، ينتظرن رحيل المركبات . ولكن « جاميلان » لم يكن يرى شيئا – وهو يهبط الدرجات وسط أمواج المحلفين والنظارة – ولا كان يسمع سوى القرار العادل الانسانى الذى أصدره ، وماداخله من اغتباط اذ تبين البراءة .

وفى الفناء ، ارتمت « ايلودى » بين ذراعيه ، شاحبة ، دامعة ، باسمة ، وظلت على صدره كالمغشى عليها . حتى اذا تمالكت صوتها ، قالت له :

– انك جميل يا ايفاريست . انك طيب . انك كريم !..
فى هذه القاعة ، كان صوتك – القوى الحنون – يسرى بتموجاته المغناطيسية ، فيبعث كهرباء فى كيانى .. كنت أحملق فيك وانت على الاريكة الخشبية ، ولم أكن أرى سواك . اما أنت يا حبيبى ، فما أراك قد فطنت الى وجودى ؟.. ألم ينبهك شىء الى اننى كنت هناك ؟.. كنت أجلس فى المحكمة ، فى الصف الثانى ، الى اليمين . يا الهى ! **ما أحلى فعل الخير !.. لقد انقذت هذا التعس . فلولاك**

لقضى الامر ، ولكان من الهالكين !.. لقد رددته الى الحياة ، والى حب ذويه ، فهو - فى هذه اللحظة - يباركك ولا شك. لكم أنا سعيدة وفخورة بحبى لك يا ايفاريست !

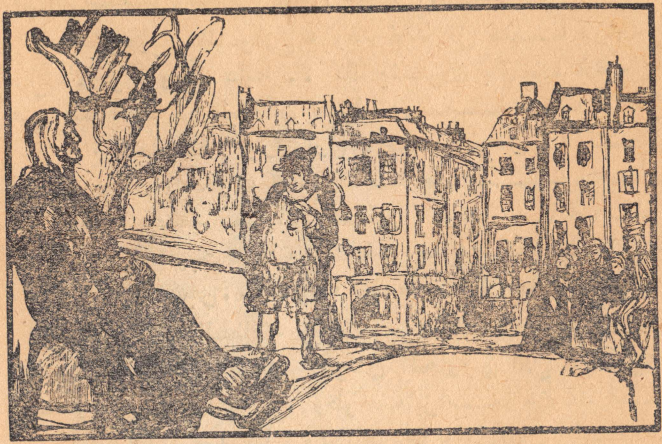
وراحا يطويان الشوارع ، وقد عقد كل منهما ذراعه فى ذراع الآخر ، ومال عليه .. كانا يشعران بأنهما خفيفان ، حتى ظنا انهما لن يلبثا أن يطيرا . ويمما صوب « لامور بانتر » ، فلما بلغا (لوراتوار) ، قالت ايلودى : « لنتحاش الدخول خلال الحانوت » . وادخلته من الباب المخصص للمركبات ، فصعد معها الى المسكن . وعند نهاية السلم ، أخرجت من حقيبة يدها مفتاحا حديديا كبيرا ، وقالت : « كأنه مفتاح سجن .. لسوف تصبح سجانى ياايفاريست! »

واجتازا قاعة الطعام ، وبلغا حجرة الشابة . وشعر ايفاريست بفضارة شفتى ايلودى الحارتين على شفتيه ، فاعتصرها بين ذراعيه .. وطوحت براسها ، وقد أسبلت عينيها ، وتهدل شعرها ، ولان عودها ، وكأنها فى اغماءة .. ثم انفلتت منه ، وهرعت ، فدفعت المزلاج محكمة رتاج الباب ..

وكان الليل قد اكتهل ، عندما فتحت المواطنة بليز باب المسكن لحبيبها . وقالت له - فى الظلام - بصوت خافت : « مع السلامة يا غرامى !.. هذا موعد عودة أبى ، فاذا سمعت ضجة على السلم ، فاصعد بسرعة الى الطابق الاعلى، ولا تهبط الا عندما لا يعود هناك خطر من أن يراك . ولكى تفتح الباب المفضى الى الطريق ، اطرق نافذة حارسة الباب ثلاث مرات . وداعا يا حياتى .. وداعا يا روحى ! »

وعندما الفى نفسه فى الشارع ، رأى نافذة غرفة « ايلودى » تفتح قليلا ، ويدا صغيرة تقتطف قرنفلة حمراء ، لم تلبث ان هوت عند قدميه كنقطة من دم .

الفصل الثانى عشر



• في ذات مساء ، حمل الشيخ بروتو اثنتى عشرة « دستة » من الدمى الى المواطن « كايو » بشارع «لالوا» .. وكان تاجر اللعب لطيفا مهذبا عادة ، ولكنه استقبله فى هذه المرة — وسط «العرائس» و «الاراجوزات» — فى جفوة. وقال: « حذار أيها المواطن بروتو .. حذار ، فليس كل وقت مناسبا للضحك ، وليست كل المزح والدعابات طيبة . فان عضوا فى لجنة الامن بالقطاع ، زارنى فى متجرى بالأمس ، ورأى دميك فالفاها ضد الثورة » .

فقال بروتو : « انما كان يمزح ! »

— كلا ، أيها المواطن .. كلا . انه رجل لا يمزح البتة . قال ان فى اشكال هذه الدمى الساذجة ، فكرة وطنية أخفيت بمكر .. ففى وسع المرء أن يتبين فيها صورا كاريكاتورية

تمثل « كوثون » وسان جيست وروبسبير (٦٥) ، ومن ثم صادرها جميعا . وهذه خسارة فادحة لى ، بغض النظر عن الاخطار التى صرت معرضا لها .

ـ ماذا ؟.. هذه الدمى التى تمثل «ارلكان» و «جيل» ، و « سكاراموش » ، و « كولان » و « كوليت » ، والتى نقلت أشكالها عن رسوم « بوشيه » التى صور بها هذه الشخصيات منذ خمسين سنة .. أهذه تقليد متوار لكوثون وسان جيست ؟.. ما من رجل عاقل يزعم هذا !

ورد المواطن كايو ، قائلا : « من المحتمل أن تكون قد فعلت هذا عن غير سوء ، وان كان من الواجب دائما توقع التحدى من شخص ذكى مثلك . بيد ان اللعبة خطرة . فهل تريد مثلا ؟.. لقد اعتقل أمس الاول « ناتوال » ـ الذى كان يدير مسرحا صغيرا فى (الشانزليزيه) ـ بتهمة المروق على القومية ، لأنه مثل المؤتمر الوطنى بالدمى (الاراجوزات) » .. فقال بروتو ، وهو يرفع القماش الذى كان يغطى دميه : « الق نظرة أخرى !.. تأمل هذه المسخ وهذه الوجوه ، أهى غير شخصيات القصص الهزلية وأساطير الرعاة ؟.. كيف تنساق ـ أيها المواطن كايو ـ الى القول بأننى أسخر من رجال المؤتمر القومى ؟ »

كان « بروتو » فى دهشة ، فعلى كثرة ما عرف عن حماقة الذهن البشرى ، لم يخطر له قط ان يتجه عقل الى الشك فى دميه ومسخه . فراح يدافع عن براءتها وبراءته . بيد ان

---

(٦٥) جورج كوتون (١٧٥٥ ـ ١٧٩٤) : من أعضاء المؤتمر الوطنى . وكان مشلول الساقين . وقد اشترك مع « سان جيست » و « روبسبير » فى حكومة ثلاثية .. وانتهت حياته على المقصلة .. ولوى دى سان جيست (١٧٦٧ ـ ١٧٩٤) : كان من أعضاء لجنة الأمن العام ، وانتهى به طموحه الى المقصلة ، بسبب الارهاب .. ومكسميليان دى روبسبير (١٧٥٨ ـ ١٧٩٤) : كان محاميا وزعيما ، فرض حكم الارهاب ، ومات على المقصلة . على أنه كان نزيها ، وعرف بلقب « المعصوم من الفساد » .

المواطن « كايو » أبى أن ينصت اليه ، وقال : « خذ دميك أيها المواطن بروتو . انني أقدرك وأكرمك ، ولكنى لا أبتغى لوما ولا ريبا بسببك . فأنا أحترم القانون ، وأعتزم أن أظل مواطنا طيبا ، وان أعامل كمواطن طيب . عم مساء يا مواطن بروتو .. واحمل دميك ! »

واتخذ الشيخ بروتو طريقه الى داره ، حاملا دميه المشتبه فيها على كتفه – فى طرف قصبة – متعرضا لسخرية الاطفال الذين حسبوه بائع سم الجرذان . وانتابته أفكار حزينة ، فما من شك فى أنه لم يكن يعيش على دميه هذه وحدها ، بل كان يرسم لوحات يبيع الواحدة منها بعشرين « سو » – تحت الابواب المحكمة المزاليج ، أو فى نفق فى سوق المدينة ، بين راتقات الثياب – لكثير من الفتية الذين كانوا يرحلون للخدمة فى الجيش ، ويتفون ترك صورهم لعشيقاتهم . بيد أن هذه الاعمال التافهة كانت تسبب له استياء بالغا ، وكان يلاقى عناء ليتقن هذه الصور أكثر من اتقانه الدمى . **كما كان يعمل – أحيانا – كاتبا لنساء السوق ، ولكن هذا كان يزج به فى مؤامرات الملكيين ، فكانت المخاطر جسيمة** . وتذكر أنه كان ثمة تاجر آخر للعب – يدعى « جولى » – فى شارع (نيف – ديه – بيتى شان) ، بالقرب من الميدان الذى كان معروفا باسم (فندوم) .. فقرر أن يذهب اليه فى غده ، فيعرض عليه مارفض « كايو » الرعديد من بضاعته .

***

وشرع الرذاذ يتساقط ، فحث « بروتو » خطاه ، خشية أن تضار دميه . وفيما كان يجتاز الجسر الجديد (بون نيف) – المعتم ، المقفر – ويعرج الى ميدان (تيونفيل) ، لمح على ضوء أحد مصابيح الشارع ، وعلى مقعد حجرى ، كهلا هزيلا بدا وشيكا أن يهلك من التعب والجوع ، وان

ظل محتفظا بمظهر مهيب . وكان يرتدى عباءة مهلهلة ، ولا تكسو رأسه قبعة ، وقد لاح أن سنه تجاوزت الستين .. كان ذلك « لونجمار » ، الذى أنقذه قبل ستة أشهر من الشنق معلقا فى مصباح ، بينما كانا يقفان معا بين الناس الذين اصطفوا أمام المخبز ، فى شارع (أورشليم) . واذ كان مرتبطا برجل الدين بصنيع سابق ، فانه اقترب منه . وعرف فيه هذا ملتزم الضرائب الذى كان قد وقف بجانبه وسط الدهماء ، فى يوم المجاعة الكبرى . **وسأله « بروتو » عما اذا كان بوسعه أن يفيده بشىء ، ثم أردف : « انك منهوك القوى يا أبى ، فتناول جرعة من هذا الشراب المنعش ! »**

وأخرج من جيب سترته « الردينجوت » القرمزية قنينة صغيرة من الخمر ، كانت تقبع فى الجيب بجانب كتابه المفضل « لوكريس » . وقال : « اشرب ، وسأساعدك على بلوغ دارك ! » . فدفع الأب لونجمار القنينة بيده ، وراح يناضل كى ينهض . ولكنه وقع ثانية على المقعد الحجرى . وقال بصوت واهن ، ولكنه بادى الاعتداد : « اننى أقيم فى (بيكبوس) منذ ثلاثة أشهر ياسيدى . ولقد نمى الى علمى بالامس انهم قادمون لاعتقالى فى مسكنى ، فى الساعة الخامسة صباحا ، فلم أعد الى المسكن . لم يعد لى مأوى ، وانى لأهيم فى الشوارع ، وقد أصابنى التعب » . فقال بروتو : « لابأس يا أبت ، شرفنى بمشاطرتى غرفتى المتواضعة تحت السقف » .

وقال القس البرنابى : « ألم تسمع ياسيدى أننى موضع اشتباه ؟ » . فقال بروتو : **« وكذلك انا .. والدمى التى أصنعها أيضا ، وهذا شر البلية . وها انتذا تراها - تحت هذه الغلالة - معرضة للرذاذ الذى يثلج عظامنا . فقد أصبحت أصنع الدمى لأكسب قوتى ، بعد أن كنت ملتزم**

ضرائب ، كما تعرف يا أبى ! »

وأمسك الأب لونجمار باليد التى بسطها له رجل المال السابق ، وقبل الدعوة المعروضة . وقدم له « بروتو » — فى مسكنه — خبزا وجبنا ونبيذا كان قد وضعه فى الميزاب ليبرد ، اذ كان حريصا على ارضاء مزاجه .

وما أن أخمد الأب لونجمار جوعه ، حتى قال : « خليق بى ياسيدى أن أطلعك على الظروف التى دعت الى فرارى ، وطوحت بى لأموت على ذلك المقعد الحجرى الذى وجدتنى عليه . فأنا منذ طردت من ديرى رحت أعيش على الايجار الهزيل الذى قدرته الجمعية العامة للدير ، وأعطى دروسا فى اللغة اللاتينية والعلوم الرياضية ، وأكتب منشورات عن اضطهاد الكنيسة الفرنسية . كذلك ألفت رسالة مستفيضة لاثبات أن اليمين الدستورية التى يؤديها القساوسة مخالفة للنظام الكنسى . ولقد حرمنى تقدم الثورة من كافة تلاميذى ، ولم يعد بوسعى أن أمس معاشى بدون بطاقة الولاء القومى ، التى يحتمها القانون . وهذه الشهادة هى التى كنت قد ذهبت لأطلبها من المجلس البلدى ، وأنا مقتنع بأننى أهل لها . **وكعضو فى مذهب أنشأه القديس بولس الرسول بالذات — الذى ظفر بجدارة بلقب « مواطن رومانى » — فقد رحت أعشم نفسى بأننى اذ أسلك مسلكه ، مقتديا به ، جدير بأن أصبح مواطنا فرنسيا ، احترم كافة القوانين البشرية التى لاتتعارض مع الشرائع الالهية** . وقد قدمت طلبى الى المسيو « كولان » القصاب ، وموظف المجلس البلدى المنوط باصدار هذه البطاقات ، فسألنى عن وضعى الاجتماعى ، فقلت له اننى كنت قسا .. وسألنى ان كنت متزوجا ، فما ان اجبت بأننى لم أكن متزوجا ، حتى قال ان هذا شر ما فى الامر !

« وأخيرا — بعد أسئلة متباينة — سألنى عما اذا كنت

قد برهنت على ولائى القومى ، فى العاشر من أغسطس ، والثانى من سبتمبر ، والواحد والثلاثين من مايو ، وأردف قائلا : « لاسبيل لمنح هذه البطاقات الا لمن أثبتوا ولاءهم بمسلكهم فى هذه المناسبات الثلاث » . ولم أستطع أن أجد جوابا يرضيه . ومع ذلك ، فقد أخذ اسمى وعنوانى ووعدنى بأن يجرى تحريا فوريا عن حالى . وكان عند قوله ، وكانت نتيجة تحريه ان ذهب اثنان من « قوميسيرى » لجنة الامن العام فى (بيكبوس) – تعاونهما قوة مسلحة – الى مسكنى فى غيابى ، لاقتيادى الى السجن . ولست أدرى بأية جريمة أنا متهم . ولكنك تقرنى على ان المسيو « كولان » خليق بالرثاء ، اذ لاتزال روحه مضطربة ، حتى انه ليلوم رجل دين على انه لم يظهر ولاءه القومى فى العاشر من أغسطس ، والثانى من سبتمبر ، والواحد والثلاثين من مايو .. رجل له مثل هذا التفكير ، جدير بالرثاء ! »

وقال بروتو : « وأنا الآخر لاامتلك بطاقة ؛ فكلانا من المشتبه فيهم . ولكنك منهوك القوى يا أبى ، فالجأ الآن الى الفراش ، وسنتدبر غدا أمر سلامتك » .

***

ونزل عن الحشية الوثيرة لضيفه ، واستبقى لنفسه الاخرى المحشوة بالقش . فألح القس – فى تواضع – على أن تكون هذه له ، وذهب فى الحافة الى درجة لم يكن معها بد من ارضائه ، والا نام على البلاط .

وما ان انتهت هذه التدابير ، حتى أطفأ « بروتو » الشمعة من قبيل الاقتصاد والحكمة . وقال رجل الدين : « اننى معترف بما أسديت الى ياسيدى . ولكن واأسفاه !.. ما من قيمة تذكر تجنيها من عرفانى بالجميل . فلعل الله يجزيك خيرا !.. وهذا جزاء لاحد له . على ان الله لايحسب حسابا للامر الذى لايفعل تمجيدا له ، والذى لا[illegible] طبيعة

فاضلة ، صادقة .. لهذا أناشدك ياسيدى ، أن تفعل لله ما تشعر بميل الى أن تفعله من أجلى » .

ورد بروتو قائلا : « لاتشغل بالك يا أبتاه ، ولا تقدم لى شيئا من العرفان . ان ما أفعله فى هذه اللحظة ، وتبالغ أنت فى تقديره ، لا أفعله حبا فيك ، فمع انك شخصية جديرة بالحب يا أبتى ، الا أننى لم أعرفك المعرفة التى تجعلنى أحبك . كذلك أنا لا أفعل ما أفعل حبا فى الانسانية ، اذ اننى لست فى سذاجة « دون جوان » حتى أؤمن - كما كان يؤمن - بأن للانسانية حقوقا مكتسبة .. بل ان هذا الوهم حين يتملك روحا حرة كروحه ، يبعث الأسى فى نفسى .. انما أفعل ما أفعل بتلك الاثرة التى توحى الى الانسان بكافة أعمال الكرم والوفاء الصادق ، فيؤديها لأنه يتعرف نفسه فى كافة البؤساء ، ويجد لنفسه عزاء فى بؤس الغير ، ويبذل العون لأخيه الانسان الفانى ، أملا فى أن تيسر له الطبيعة والقدر العون والنجدة بدوره . ثم اننى أفعل ما أفعله بدافع من البطالة كذلك . فان الحياة قد أصبحت غثة تافهة ، بحيث ينبغى ان يشغل المرء عنها مهما يكن الثمن . كما أن فعل الخير نوع من اللهو المر الذى يبتلى به المرير نفسه عوضا عن أنواع أخرى من اللهو ألذ وأشهى .. اننى أفعل ما أفعل بدافع من الغرور ، ولتكون لى اليد العليا عليك .. ثم اننى أفعله بدافع من روح القيم والمبادىء ، ولأريك ما يستطيع الزنديق الكافر أن يسديه ! »

فأجاب الاب لونجمار : « لاينبغى أن تفترى على نفسك بهتانا يا سيدى . اننى تلقيت من الله نعما كثيرة لم ينعم بها عليك حتى هذه الساعة ، ولكنى أقل منك قيمة ومكانة ، وأقل منك نصيبا من الفضائل الطبيعية . ومن ثم فاسمح لى بأن أفوقك بميزة . فانت لاتستطيع ان تحبنى لأنك لا تعرفنى . اما أنا ياسيدى ، فبدون ان اعرفك ، احبك أكثر

من نفسى .. فبهذا أمرنى الله ! »

وما ان قال الأب لونجمار هذا ، حتى جثا راكعا على البلاط ، وبعد أن ردد صلواته ، استلقى على الحشية المصنوعة من القش ، واستغرق فى النوم .

الفصل الثالث عشر

• **اتخذ** « ايفاريست جاميلان » مجلسه بين هيئة المحكمة للمرة الثانية . وراح يتحدث مع زملائه من المحلفين ، عن الانباء التى وردت ـ فى ذلك الصباح ـ قبل افتتاح الجلسة . وكانت بينها أنباء غير مؤكدة ، وأنباء كاذبة .. غير أن ماكان حقيقيا منها ، كان مروعا . فان الجيوش المتحالفة سيطرت على كافة الطرق ، وأخذت تزحف معا .. وانتصرت مقاطعة (فانديه) ، وتمردت (ليون) ، واستسلمت (طولون) للانجليز الذين انزلوا على ساحلها أربعة عشر الف رجل .

ولم تكن هذه ـ فى نظر رجال المحكمة ـ مسائل داخلية ، وانما كانت احداثا تهم العالم أجمع .. وأذ كانوا موقنين من انهم هالكون اذا هلك الوطن ، فقد جعلوا السلامة العامة قضيتهم الكبرى والوحيدة . وأخذت مصلحة الامة ـ التى كانت ممتزجة بمصلحتهم ـ تملى عليهم مشاعرهم ، وعواطفهم ، ومسلكهم .

وتلقى ((جاميلان)) ـ وهو جالس على مقعده الخشبى ـ رسالة من ((تروبيه)) ، سكرتير لجنة الدفاع ، يعلنه فيها بتعيينه متصرفا (قوميسير) فى البارود والمواد المتفجرة .. وقد جاء فيها :

« انك ستنبش كافة الاقبية فى القطاع ، لاستخراج المواد اللازمة لصناعة البارود . فمن المحتمل أن يصير العدو غدا

أمام باريس ، فلابد لتربة الوطن من أن تزودنا بالصاعقة التى نلقيها على هؤلاء المعتدين . لذلك أرسل اليك بهذا تعليمات المؤتمر الخاصة بتدبير المتفجرات . ولك التحية والاخوة » .

وفى هذه اللحظة ، أقتيد المتهم الى القاعة . وكان من آخر القادة المهزومين ، الذين أحالهم المؤتمر الى المحكمة ، وأكثرهم غموضا .. وارتجف « جاميلان » اذ رآه ، فقد خيل اليه انه يرى ثانية ذلك العسكرى الذى أبصره وسط الجمهور - منذ ثلاثة أسابيع - وهو يدان ويرسل الى المقصلة . كان نفس الرجل بمظهره الأبى العنيد .. وكانت القضية عين القضية . فقد راح يجيب فى مداورة وشراسة أفسدتا قوة اجاباته . وكانت انتقاداته ، وحججه الركيكة ، والاتهامات التى راح يرمى بها أعوانه ، تجعل المرء ينسى انه انما كان يمارس واجبا جليلا .. واجب الدفاع عن شرفه وحياته . وكان كل شىء - فى هذه القضية - غير ثابت ، وموضوع محاجة : موقف الجيوش ، وعدد الجنود العاملين ، والذخائر ، والاوامر المتلقاة ، وتحركات القوات .. ولم يكن أحد يعرف شيئا منها . فما من شخص كان يفهم شيئا من هذه العمليات المضطربة ، الهوجاء ، التى لم تكن لها غاية ، والتى أدت الى نكبة .. ما من شخص كان يفهمها .. وما كان الدفاع - بل المتهم نفسه - يفوق فى فهمه اياها القضاة والمحلفين .. وكان أغرب مافى الأمر أن أحدا لم يكن ليقر للغير - بل ولا لنفسه - بعجزه عن الفهم . فكان القضاة يتخبطون فى رسم الخطط ، والمناقشة فى الأساليب والفنون العسكرية .. وكان المتهم يضللهم ليساند حججه الركيكة .

ومضى الجدل الى مالا نهاية . وراح « جاميلان » - أثناء هذه المناقشات - يتمثل طرق الشمال الوعرة ، وقد انقلبت عربات الامداد والمدافع فى وهادها ، وانسابت الفصائل

المدحورة فى كل المسالك ، مشتتة فى فوضى ، بينما كان فرسان العدو يقتحمون الاستحكامات المهجورة ، من كل جانب . وخيل اليه أنه كان يسمع صيحة هائلة تتصاعد من هذا الجيش المغدور ، تتهم القائد .. وسطا الظلام على جدران القاعة ، وانتصب - فوق رأس رئيس المحكمة - شكل « مارا » غير واضح ، كأنه شبح أو طيف . واذ دعى المحلفون الى اعلان رأيهم ، أجمعوا على اتفاق . **وأعلن « جاميلان » بصوت خافت ، كان يختنق فى حلقه - وان كانت لهجته حازمة - ان المتهم كان مذنبا ، وقد ارتكب خيانة نحو الجمهورية .. فتصاعدت غمغمة محبذة من الحشد ، هبت كنسمة تمسح على نزاهته الشابة** . وقرىء الحكم على أضواء المشاعل ، التى كان لهبها الكئيب يتراقص على صدغى المدان الفائرين ، حيث كان العرق يبدو متبلورا.

وعند الخروج ، لم يكد « جاميلان » يصل الى الدرجات التى احتشدت عليها النسوة الثرثارات ، بعلاماتهن الحريرية الملونة ، حتى سمع غمغمة باسمه الذى كان رواد المحكمة - الذين اعتادوا حضور جلساتها - قد بدأوا يعرفونه .. وهاجمته الحائكات ملوحات بقبضاتهن ، مطالبات برأس النمسوية .

وفى اليوم التالى ، قدر لايفاريست أن يصدر حكمه بالقضاء على حياة امرأة مسكينة ، هى الارملة « ميريون » ، موزعة الخبز .. كانت تمضى فى الطرق ، دافعة أمامها عربة صغيرة ، وقد علقت الى خصرها لوحا من الخشب الابيض ، كانت تحفر عليه بسكينها علامات تمثل حساب ما كانت توزع من خبز . وكان مكسبها ثمانية « سو » فى اليوم . وأبدى نائب المدعى العام عنفا عجيبا نحو هذه التعسة التى كانت - كما يقال - قد هتفت : « يحيا الملك ! » ، لعدد من المعتقلين الذين ألقى القبض عليهم وهم يمارسون أعمالا

مضادة للثورة ــ فى البيوت التى كانت تتردد عليهـا بالخبز يوميا ــ واتهموا بالتآمر بغية تهريب المرأة « كابيه » . واذ استجوبها القاضى ، وأطلعها على الاعمال المعزوة اليهـا ، كشفت ــ اما لسذاجتهـا ، واما لتطرف متهوس ــ عن مشاعر ملكية شديدة التحمس ، فقضت على نفسها بالهلاك .

ولقد ناصرت المحكمة الثورية المسـاواة ، اذ أبدت من الصرامة والقسوة نحو الحمالين والخدم ، قدر ما أبدت نحو الارستقراطيين والماليين . ولم يفطن « جاميلان » قط الى انها كانت خليقة بأن تسلك غير هذا المسلك ، تحت حكم شعبى . فقـد كان يقضى باستهجان أى استبعاد للعقاب ، ويرى فيـه استهـانة بالشعب ، اذ انه كان ــ فى رأيه ــ استخفافا بمبـدأ العقـاب . وكان قصر المقصلة على الارستقراطيين وحدهم ، يتراءى له بمثابة نوع من التمييز . فشرع يتخذ من « العقاب » مبدا يرقى الى مراتب المبادىء الدينية والتصوفية ، وامتدادا للفضيلة والسجايا الكاملة . كان يرى أن الألم حق على المجرمين ، وأن من الخطا حرمانهم منه .. ومن ثم أعلن أن المرأة « ميريون » مذنبة ، وجـديرة بالعقوبة القصـوى ، ولم يأسف الا على أن المتطرفين الذين أضاعوها ، والذين كانوا أعظم ذنب منهـا ، لم يكونوا الى جوارها ليشاطروها مصيرها .

***

وأخذ « جاميلان » يتردد ــ فى كل مسـاء تقريبا ــ على اليعقوبيين الذين كانوا يجتمعون فى كنيسة « الدومينيكان » القديمة ، بشارع (اونوريه) . وفى مساحة استطالت فيهـا شجرة الحرية ــ صفصافة لاتكف اوراقها عن الحركة محدثة وسوسة متواصلة ــ كانت الكنيسة تقـوم .. مجرد مبنى فقير ذى جدران كالحـة ، تعلوها طبقة من القرميد تبـدو خلالهـا دعائم السقف عارية ، وتتخللها نافذة مستديرة ،

وباب مقبى ، يرتفع فوقه العلم القومى ، وعلى ناصيته قلنسوة الحريه . وكان اليعاقبة - على شاكلة الحبليين والورقيين (٦٦) - قد اتخذوا لأنفسهم مساكن وأسماء الاقليات المشتتة . وقد أخذ « جاميلان » - من أمد قريب - يواظب على حضور جلسات « الجبليين » ، أد لم يجد لدى هؤلاء اليعاقبة اصرارا على ارتداء النعال الخشبية ، و « الكرمانيولات » .. ولا وجد لديهم صياح انصار دانتون .

كانت الحكمة الادارية ، والوقار البورجوازى يسيطران على منتدى روبسبيير .. وكان ايفاريست - مذ أفل نجم « صديق الشعب » وغاب - يتبع تعاليم مكسميليان التى كانت مسيطرة على اليعاقبة ، وبالتالى على ألف جماعة من أتباعهم ، امتدت فى طول فرنسا وعرضها .

وكان أثناء قراءة محضر الجلسة - فى المحكمة - يجيل بصره على الجدران العارية الكئيبة ، التى كانت يوما تأوى الأبناء الروحيين للمحقق الاكبر فى قضايا الزنادقة (القديس فرانسوا) ، فأصبحت تشهد اجتماعات المحققين المهتاجين فى الجرائم التى كانت ترتكب ضد الوطن ..

هناك كان يجلس فى غير أبهة ولا خيلاء ، يمارس بنطقه أعظم سلطات الدولة ، فكان يحكم المدينة والامبراطورية ، ويملى قراراته على المؤتمر .. وكان هؤلاء الذين أقبلوا على تشكيل الوضع الجديد للأمور ، يبالغون فى احترام القانون ، حتى انهم ظلوا ملكيين فى سنة ١٧٩١ ، ورغبوا فى عودة الملك من (فارين) ، تشبثا منهم بالدستور .. وظلوا أصدقاء

---

(٦٦) الحبليون : اتباع القديس فرنسوا ، والحبل رمز لزنارهم . وقد أطلق اسمهم على الجماعة التى أنشأها دانتون ومارا وديمولان سنة ١٧٩٠ والورقيون لقب كان يطلق على المتزمتين من اتباع القديس برنار . واطلق اسمهم على الملكيين النيابيين - الذين طالبوا بنظام ملكى يقيد الدستور فيه سلطات الملك - لأنهم كانوا يجتمعون فى دير قديم لهذه الطائفة .

للنظام الذى كان قائما ، حتى بعد مذابح (الشان دى مار) ، فلم يثوروا قط على الثورة .. ولم يأبهوا بالحركات الشعبية ، بل راحوا يغذون – فى نفوسهم الحزينة ، القوية – حبا للوطن احتضن أربعة عشر جيشا ، وأقام المقصلة .. ولقد **أعجب جاميلان فيهم باليقظة ، وبروح الشك التى كانت تتملكهم ، وبالفكر المتعصب للعقيدة ، وبحبهم للقواعد النظامية الموضوعة ، وبحذقهم فى التسلط على سواهم ، وبما أوتوا من فطنة ممتازة .**

ولم تكن تصدر عن الجمهور – الذى كانت القاعة تغص به – أية أصوات ، اللهم الا غمغمة مبهمة ، مدغمة ، كحفيف أوراق شجرة الحرية ، التى كانت تنتصب عند المدخل .

***

وفى ذلك اليوم – الحادى عشر من فانديمير – صعد المنبر فى تؤدة ، شاب ضيق الجبين ، ثاقب النظرات ، اقنى الأنف ، مدبب الذقن ، طويل الوجه نحيله ، بارد الاعصاب . وكان شعره مزدانا بالبودرة ، وقد ارتدى حلة زرقاء أبرزت امتشاق قوامه .. وبدا فى دقة حركاته ، واتساق قسماته ما أوحى للبعض – على سبيل السخرية – بأنه كان اشبه بأستاذ للرقص ، وما حمل بعضا آخر على ان يحييه باسم « اورفيه الفرنسى » (٦٧) .. ذلك كان « **روبسبيير** » ، الذى ألقى خطابا بليغا – بصوت جلى – حمل فيه على أعداء الجمهورية ، وانهال فيه بالحجج الدامغة القاسية على « بريسو » وأعوانه .. وأطال الكلام ، وأسهب فى جزالة ، وعبارات متناسقة . وحلق فى أجواز الفلسفة ، وقذف بصواعقه المتآمرين الذين كانوا يعيثون فى الأرض فسادا .

وراح « ايفاريست » يصغى فى استيعاب ، وكان – حتى ذلك الوقت – يتهم الجيرونديين بالتمهيد لاعادة الملكية ، أو

---

(٦٧) من شخصيات الأساطير الاغريقية ، وقد اشتهر بالموسيقى والغناء .

لنصرة عصبة « اورليان » ، وبالعمل على خراب المدينة الباسلة (باريس) ، التى خلصت فرنسا ، والتى ستخلص العالم بأسره يوما ما . **أما الآن ، فقد تبين - على صوت العقل - حقائق أسمى وأصفى .. وفطن الى منطق ثورى رفع روحه فوق شوائب الماديات المتوارية فى أخطاء الحواس ، الى نطاق الحقائق الأكيدة المطلقة .** كانت الأمور - فى حد ذاتها - مختلطة ، مشوشة ، وكانت الأحداث من التعقد بحيث يتوه المرء فيها .. فاذا روبسبير يبسطها له ، ويكشف له عن الطيب والخبيث فى عبارات سهلة واضحة : كشف له عن التحالف وعدم الانقسام .. ففى الوحدة وعدم الانقسام السلامة والامان ، وفى التحالف الهلاك .. وتذوق جاميلان ذلك الاغتباط العميق الذى يستمرئه المؤمن اذ يعرف الكلمة التى تنقذ ، والكلمة التى تورد موارد الضياع . وآمن بأن المحكمة الثورية - من الآن فصاعدا - جديرة بأن تعرف ما عرفته المحاكم الكنسية من قبل .. ان تعرف الجريمة المطلقة .. جريمة القول . ولما كان ذا روح دينية ، فقد تلقى هذه الآراء الكاشفة بحماس واجم . **وانتشى قلبه طربا اذ جال بخاطره أنه - منذ اليوم - أصبح يملك رمزا يميز به بين الجريمة والبراءة .. ذلك الرمز هو عقيدته .. فيالكنز العقيدة ، الذى يغنى عن كافة الكنوز قاطبة !**

كذلك ألقى له الحكيم مكسميليان (روبسبير) أضواء كشفت له عن النوايا الخبيثة لدى أولئك الذين أرادوا تحقيق المساواة فى الثروات ، وتقسيم الأراضى ، ومحو الثراء والفقر ، وانشاء حياة وسط ، سعيدة للجميع . فلقد خلبته مبادئهم فأقر - فى بادىء الأمر - غاياتهم ، التى رآها متفقة مع المبادىء الجمهورية الصحيحة . بيد أن روبسبير كشف له - بأحاديثه فى منتديات اليعاقبة - عن خططهم ، وأظهر أن أولئك الرجال الذى كانت نوآياهم تبدو سليمة من

كل شائبة ، كانوا يعملون على هدم الجمهورية ، فما أرعبوا الأغنيـاء الا ليثيروا على السلطات الشرعية أعـداء أقوياء شديدى الحقد . والواقع أنه بمجرد أن أصبحت الثروات مهددة ، ازداد الناس – عن بكرة ابيهم – تشبثا بما كان فى أيديهم ، بالرغم من قلته ، وانقلبوا فجأة ضد الجمهورية . فان تهديد المصالح لون من التآمر . وتحت ستار التمهيد للسـعادة الشاملة ، ولسـيادة العدالة ، كان أولئك الذين اقترحوا المساواة وشيوع الثروات – كشىء جدير بجهود المواطنين – خونة وأشرارا أشد خطرا من الأعداء المتحالفين .

على أن أكبر كشف هدته اليه حـكمة روبسبيير ، هى جرائم الملحدين وفضائحهم . فان « جاميلان » لم ينكر يوما وجـود الله . اذ كان يؤمن بوجـود قوة عليا ، وعناية ترعى البشر ، بيد انه كان يعترف – فيما بينه وبين نفسه – بأنه لم يكن يتمثل « الكائن الأعلى » الا فى صورة جد مبهمة . واذ كان شديد التعلق بحرية الضمير ، فانه كان يقر – عن طيب خاطر – بأن للأمنـاء الصـادقين – من أمثـال لاميترى ، وبولانجيـه ، والبارون دولبـاخ ، ولالاند ، وهلفيتيوس ، والمواطن دوبوى – ان ينكروا وجود الله ، **على شريطة اقامة دستور أخلاقى طبيعى ، وأن يجعلوا من أنفسهم مصـادر العدالة وقواعد لحيـاة فاضلة** . بل انه كان يشـعر بعطف – أحيـانا – على الملحـدين اذا ما رآهم يتعرضون للأذى والاضطهاد . فكشف له هذا الرجـل العظيم – ببلاغتـه الفاضلة – عن الصفة الحقيقية للالحاد ، وطبيعته ، وغاياته ، وآثاره .. **وبين له أن هذا المذهب – الذى نشأ فى «صالونات» الطبقـة الراقيـة ومخادعها – كان أخطر ابتكار طاف ببال أعداء الشعب لتقويض أخلاقه ولاستبعاده** . وان من الاجرام أن تنتزع من أفئدة التعسـاء ، هـذه الفكرة التى تهبهم العزاء – فكرة وجـود قوة عليـا ترعاهم وتعوضهم – وان

يتركوا دون هداية ولا ارشاد ، للشهوات التى تهبط بالانسان وتجعل منه عبدا دنيئا .. فاذا بالابيقورية الملكية (٦٨) — التى دعا اليها هلفيتيوس — تقودهم فى النهاية الى الانحطاط الخلقى ، والقسوة ، وكافة الجرائم ..

ومنذ أن سمع « جاميلان » هذه الدروس من مواطن عظيم ، بغض الملحدين ، وكره فيهم — بوجه خاص — انهم أوتوا قلوبا فارغة ، طروبة ، كما كانت حال الشيخ «بروتو» .

***

وكان على « ايفاريست » — فى الأيام التالية — أن يقضى فى عدد من القضايا ، اتهم فيها — على التوالى — أحد الاقطاعيين السابقين باتلاف القمح لاجاعة الشعب ، وثلاثة من المهاجرين عادوا لاشعال نار الحرب الأهلية فى فرنسا ، وفتاتان من بنات الهوى ، وأربعة عشر من المتآمرين — من أبناء مقاطعة (بريتانى) — بينهم نساء وكهول وشباب وسادة وخدم . وكانت الجرائم ثابتة ، والقانون صريحا .

وكانت بين المذنبين امرأة فى العشرين من عمرها ، بدت فاتنة اذ تجلت روائع شبابها تحت ظلال مصيرها المرتقب ، وقد لمت غدائر شعرها الذهبى عصابة زرقاء ، وكشف وشاحها الرقيق عن عنق أبيض لدن .

وأصدر « جاميلان » رأيه بالاعدام دائما ، فسيق كل المتهمين — عدا بستانى هرم — الى النطع .

وفى الاسبوع التالى ، أطاح « ايفاريست » ومحكمته برؤوس خمسة وأربعين رجلا ، وثمان وعشرين امرأة . ولم يكن قضاة المحكمة الثورية يفرقون بين الرجال والنساء ، يحدوهم فى ذلك مبدأ قديم .. أقدم من العدالة ذاتها . واذا كان الرئيس « مونتانيه » قد تأثر بشجاعة « شارلوت

---

(٦٨) الابيقورية مذهب يدعو لتغليب اللذة — الذهنية والجسدية — على ما عداها .

كورداى » وحسنها فحاول انقاذها بالتعديل فى التحقيق ، وفقد بذلك مركزه ، فان النساء كن فى أغلب الأحيان لايجدن أى ترفق فى التحقيق ، وفقا للقاعدة العامة فى المحاكم . وكان المحلفون يخشونهن ، ويحذرون مكرهن ، وما درجن عليه من تظاهر وتلفيق ، وما أوتين من وسائل الاغراء . **واذ كن يعادلن الرجال شجاعة ، فقد حملن بذلك المحكمة على معاملتهن معاملتها الرجال . وكان أغلب القضاة الذين تولوا الفصل فى أمرهن معتدلين فى شهواتهم ، أو كانوا من طلاب اللذة فى زمن مضى من أعمارهم ، فلم يعد الأمر يزعجهم اطلاقا ، وأصبحوا يقضون بالادانة أو بالبراءة وفقا لضمائرهم ، ومعتقداتهم ، وتحمسهم ، وحبهم للجمهورية** . أما هن فكن جميعا — بالتقريب — يظهرن وقد عنين بتنسيق شعورهن ، وجهدن فى التأنق بقدر ما كانت تسمح لهم أحوالهن المنكودة . بيد أن الشابات كن قلة بينهن ، وكانت الجميلات أقل . وكان السجن والقلق يذبلهن ، ويوم المحاكمة البغيض يفنيهن ويكشف عن همومهن ويفضح ذبول أجفانهن ، ونضوب تورد بشرتهن ، وشحوب شفاههن واختلاجها .

على أن المقعد الرهيب استقبل — أكثر من مرة — امرأة فى ميعة الصبا ، حسناء فى غير شحوب . فكانت ظلال الموت المتراقصة على شراع الغواية تبدو على نظراتهن . وكم من محلف كان — عند هذا المنظر — يتجلد ، أو يلين ، أو ينفعل .. كم من هؤلاء القضاة كان — وهو يتكتم مشاعره المحرومة — ينفذ ببصره الى أعمق أسرار هذه المخلوقة التى كان يتمثلها حية وميتة فى آن واحد .. **وكم منهم أسلم نفسه — والرؤى الغاوية والدامعة تتتابع متذبذبة — للذة الفظيعة .. لذة زف هذا الجسد المشتهى الى الجلاد !..** هذا ماكان يطويه الصمت ، ولكن ما من سبيل الى انكاره ، لمن يعرف الرجال !.. أما « ايفاريست جاميلان » ، الفنان الهادىء

الأعصاب ، الواسع المعرفة ، فلم يكن يعترف بالجمال لغير التحف ، ولم يكن الجمال يوحى اليه باضطراب ، بقدر ما كان يلهمه الاحترام . وكان ذوقه « الكلاسيكى » من التزمت الى درجة أنه نادرا ما كان يرضى عن جمال امرأة .. ولم تكن مفاتن أى وجه جميل تثيره بأكثر مما كانت تثيره الوان « فراجونار » ، او تشكيلات « بوشيه » الرسامين . فما عرف الرغبة قط الا فى الحب العميق .

وكان - كغالبية زملائه فى الحكمة - يعتقد أن النساء أشد خطرا من الرجال . وكان يبغض الاميرات السابقات ، اللائى كان يتمثلهن - فى خياله المفعم بالاستنكار - على غرار اليزابيث (٦٩) والنمسوية ، مجرد رصاصات لقتل الوطنيين .. كما كان يكره كافة الحسناوات من صديقات رجال المال ، والفلاسفة ، والأدباء ، ممن كن يعبثن بالملاذ الحسية والفكرية ، وممن عشن فى زمن كان العيش فيه لينا ناعما .. كان يمقتهن دون أن يبوح بمقته ، وكان - اذا مثلت أمامه واحدة منهن ليقضى فى أمرها - يحكم بالادانة فى غل ، وهو يعتقد أن حكمه انما كان يصدر عن عدل ، من أجل السلامة العامة . وكم دفع الى المقصلة - بصدق يقينه ، وحيائه المتسم بالرجولة ، وحكمته غير المندفعة ، وولائه للدولة ، وفضائله - برؤوس كانت تحرك أوتار القلوب .

ولكن ، ما هذا ؟.. ما معنى هذه المعجزة الغريبة ؟.. فمنذ عهد غير بعيد ، كان لابد من البحث عن المذنبين ، والاضطرار الى كشف مخابئهم ، وانتزاع الاعتراف بجرمهم من شفاههم . اما الآن ، فلم يعد الامر صيدا تحتشد له جموع من كلاب الصيد ، ولم يعد مطاردة لفريسة مستنفرة ، بل اصبح الضحايا يتوافدون من كل فج .. اصبح النبلاء ،

(٦٩) شقيقة لويس السادس عشر ، وقد لقيت مصرعها على المقصلة .

والعذارى ، والجنــود ، وبنات الهــوى ، يتدفقون على المحكمة ، وينتزعون من القضاة الحــكم الذى كان يمعن فى الابطاء ، ويطالبون بالموت كانه حق نفد صبرهم فى انتظــار الاستمتاع به . ولم يكن هــذا الحشد ، الذى اترعت به السجون غيرة الواشين ، والذى كان المدعى العام واعــوانه يفنون آجالهم فى سوقه الى المحكمة .. لم يكن فى هــذا الحشد الكفاية ، فكان هنــاك من يتعجلون العقوبة ويأبون الانتظار !.. وكم غيرهم كانوا اكثر اباء وأنفة ، فضنوا على قضاتهم وجلاديهم بقتلهم ، وقضوا على أنفسهم بأيديهم !.. فقد أثار جنون القتل جنون الموت !.. وهاهوذا ــ عنــد ابواب المحكمة ــ عسكرى شاب ، جميل ، موفور القــوة ، محبوب ..ودع فى السجن حبيبة كان يعبدها ، وقد قالت له : « عش من أجلى ! » ، فلم يشأ أن يعيش .. لا لهــا ، ولا للحب ، ولا للمجد . واشعل غليونه بقرار الاتهام الموجه اليها ، وبالرغم من انه كان جمهوريا يستنشق الحرية بكل مسامه ، فانه انقلب ملكيا قبيل موته .. وتضطر المحكمة الى تبرئة ساحته ، فيزداد المتهم اصرارا ، ولا يجد القضاة والمحكمون بدا من ان يذعنوا ، وان يرسلوه للمقصلة !

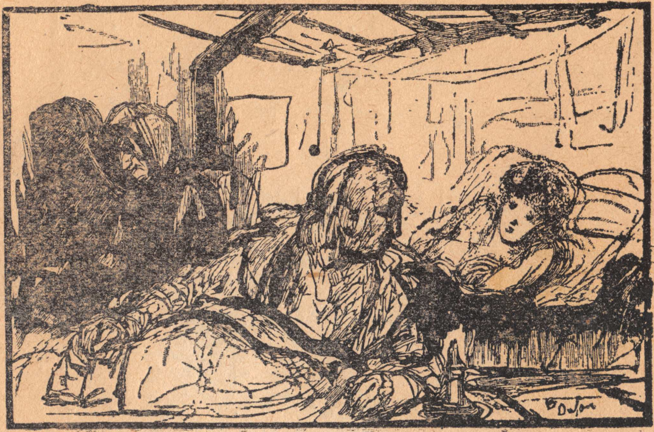
وكان ذهن « ايفاريست » قلقا متريبا بطبيعته ، فافعمته دروس اليعاقبة ومشاهد الحياة شكوكا ومخاوف . وبات وهو يسلك الشوارع السيئة الاضاءة ــ فى المساء ــ ليزور « ايلودى » ، يخال انه يلمح خلال نافذة كل قبــو ، الــواح تزييف الاوراق المالية .. وفى اغوار كل حانوت خاو ــ من حوانيت باعة الخبز او البدالين ــ كان يتصــور انه يرى المؤن متراكمة ، وقد امسكها اصحابها لترتفع الاســعار .. وخلال زجاج كل نافذة ، كان يتوهم انه يسمع المحتكرين يبيتون لخراب البلاد ، وهم يفرغون زجاجات نبيذ (بون)

أو (شابلى) .. وفى الأزقة الموبوءة ، كان يتخيل انـه يلمح بنات الهوى يطأن بأقدامهن الشعار القومى ، وسط تصفيق الشباب الماجن .

كان يتمثل المتآمرين والخونة فى كل مكان .. وكان يقول لنفسه : **«أيتها الجمهورية !.. ليس لك سوى منقذ واحد من كثرة الاعداء ، المستترين منهم والظـاهرين .. فانقـذى الوطن ، أيتها المقصلة المقدسة ! »**

وكانت « ايلودى » تنتظره فى غرفتها الصغيرة الزرقاء ، فوق « لامور بانتر » . ولكى تنبهه الى أن بوسـعه أن يلج الدار ، كانت تضع مسقاتها الخضراء الصغيرة (التى تروى بها أصص الزهور) ، على مقربة من أصيص القرنفل . وكان قد أصبح يثير ذعرها ، ويتراءى لها كوحش كاسر .. فباتت تخافه ، ولكنها كانت تعبده !.. وكان العاشـق المغرق فى الدماء ، والفتاة الغاوية المدلهة ، يقضيان الليل طوله وقـد تشبث كل منهما بأحضـان الآخر ، واستغرقا فى قبـلات صامتة ضارية !

الفصل الرابع عشر



• استيقظ الأب لونجمار مع الفجر ، فما أن كنس أرض الحجرة ، حتى تأهب للذهاب ليتلو القداس فى كنيسة صغيرة بشارع (دانفير) ، يقوم عليها قس ممن لم يؤدوا يمين الولاء للثورة . وكانت فى باريس آلاف من الاماكن الشبيهة ، يجمع فيها رجال الكنيسة المستترون ، جماعات من الاتقياء ، ليؤدوا القداسات سرا . ومع أن شرطة القطاعات كانوا يقظين ، مشبوبى الريب ، الا انهم أغمضوا أعينهم عن هذه المآوى المتوارية ، خوفا من سخط الناس ، وبوازع من بقية من التوقير للشؤون المقدسة .. وودع البرنابى مضيفه ، الذى الحف عليه كى يعود لتناول الفداء ، واستطاع أن يقنعه أخيرا ، حين وعد بأن لا يكون الطعام وافرا ، ولا فخما !

واذ خلا « بروتو » الى نفسه ، أشعل موقدا صغيرا من الفخار ، حتى اذا أعد غداء للمتدين والابيقورى ، تحول يعيد قراءة ديوان « لوكريس » ، ويطلق الفكر فى تأمل أحوال البشر .. ولم يكن هذا الحكيم يعجب من أن من التعساء من كانوا يجدون أنفسهم – فى كثير من الاحيان – فى مواقف حرجة اليمة ، وهم مجرد لعب تافهة تعبث بها قوى الطبيعة . وكان منطقه يضعف ازاء الثوريين ، اذ كان يعتقد انهم أكثر شرا وأعظم حماقة من غيرهم من البشر .. وهو خطأ وقع فيه كثير من ذوى الآراء والنظريات . أما فيما عدا هذا ، فان «بروتو» لم يكن متشائما ، ولا كان يعتبر الحياة شرا محضا . بل انه كان يعجب بالطبيعة فى كثير من نواحيها ، لا سيما تركيب السماء وما فيها من حركة ، والحب الجسدى . وقد راض نفسه على بلايا الحياة ، فى انتظار يوم قريب ، لا يعود يعرف فيه المخاوف ولا الشهوات .

وطلى بعض الدمى بعناية ، وجعل من احدى الدمى الكبيرة شبيهة لتيفينان ، فقد راقت له هذه الفتاة ، واعجبت ابيقوريته بالنظام الذى تناسقت عليه ذرات كيانها .. وشغلته هذه المهام الى أن عاد البرنابى ..

وبادره ، وهو يفتح له الباب : « لقد قلت لك يا أبى ان وجبتنا هزيلة .. فليس لدينا سوى الكستناء ، ويحسن بنا أن نعنى بتبتيلها ! » . فصاح الأب لونجمار مبتسما : « الكستناء !.. ما من طعام يفوقها لذة . لقد كان أبى – يا سيدى – رجلا فاضلا فقيرا من الرعاة ، لم يؤت من حطام الدنيا سوى برجا مهدما للحمام ، وأرضا للرعى تنبت الحشائش البرية ، ومجموعة من اشجار الكستناء ، فكان يقتات وزوجه واولادهما الاثنا عشر على الكستناء الاخضر الكبير ، وكنا جميعا أقوياء ، متينى البنية . ولقد كنت

أصغرهم وأكثرهم عربدة ، فكان أبى يقــول – على سبيل الفكاهة – ان من الجدير ارسالى الى أمريكا لأعيث فسادا وقرصنة .. أواه ياسيدى ، ماأحلى عبير حساء الكستناء !.. انه ليذكرنى بالمائدة التى كان يحيط بها الاطفال ، وتضيؤها ابتسامة أمى ! »

واذ انتهى الغــداء ، خرج « بروتو » ليزور « جولى » ، تاجر اللعب بشارع (نيف ديه بيتى شان) . فتقبل هذا الدمى التى رفضها « كايو » ، ولم يكتف بطلب اثنتى عشرة «دستة» فى المرة – كما اعتاد الآخر – بل طلب أربعا وعشرين «دستة» كبداية .

وعنــدما بلغ « بروتو » الشارع الذى كان يسمى – من قبل – (شارع الملك) ، لمح فى ميدان الثورة قطعة مثلثة من الفــولاذ ، منتصبة بين قائمتين من الخشب .. تلك كانت المقصلة . وقد راح يتدافع حولهــا حشد هائل من الناس الذين استخفهم الطرب والفضول ، فى انتظار وصول المركبات المشحونة .. وكانت هناك نسوة حملن صحافا على بطونهن مناديات على بضاعتهن من فطــائر (نانتير) .. وراح باعة المرطبات يجلجلون بأجراسهم .. وعند قدمى تمثال الحرية ، جلس كهل يعرض مناظر « صندوق الدنيا » ، فى مسرح صغير يعــلوه نسناس يلعب على أرجوحة . وتحت النطع ، كانت الكلاب تلعق دماء الامس . فانعطف « بروتو » على شــارع (اونوريه) . حتى اذا ولج مسكنه المتواضع – حيث كان البرنابى يتلو كتاب الصلوات – مسح المنضــدة بعناية ، ووضع عليها صندوق ألوانه ، وأدواته ، ومواد حرفتــه . وقال : « اذا لم تر – يا أبت – ان هذا العمل غير لائق بجلال منصبك القدسى ، فأرجو أن تتفضل بمعــاونتى فى صنع الدمى . فان سيدا يدعى « جولى » ارتبط معى – هــذا

الصباح - بطلب كمية كبيرة . وبينما أتولى طلاء ورسم معالم الدمى التى سبق صنعها ، فانك تسدى لى صنيعا كبيرا اذا قصصت الرؤوس ، والأذرع ، والسيقان ، والجذوع ، على هذه النماذج الموجودة ، ولن تجد أفضل منها ، فهى مرسومة على طريقة واتو ، وبوشيه » .

فقال لونجمار : « الواقع اننى أعتقد ياسيدى ، ان واتو وبوشيه كانا على صواب اذ ابتدعا هذه التوافه . وكان من الأدعى لتقديرهما ولمجدهما لو انهما اقتصرا على ابتداع رسوم هزلية بريئة كهذه . ولسوف يسعدنى ان اساعدك ، ولكنى أخشى أن لا أكون بارعا فى هذا » .. وكان الاب لونجمار على حق فى التريب من مقدرته ، فلم يكن ثمة بد من الاعتراف - بعد عدة محاولات غير موفقة - بأنه لم يؤت براعة فى قطع الورق المقوى الرفيع ، بسن السكين ، وفقا للرسوم. بيد انه لم يلبث - حين أعطاه « بروتو » المثقاب وخيطا كطلبه - أن كشف عن مقدرة كبيرة فى بعث الحركة فى هذه الكائنات الصغيرة التى لم يعرف كيف يصنعها ، وفى اعدادها للرقص . ومن ثم بدا فى اتم حالات الرضى وهو يحاول أن يجعل كلا منها تؤدى بضع حركات راقصة.. فلما استجابت له ، أومضت على شفتيه الصارمتين ابتسامة .

وقال مرة وهو يجذب خيوط دمية تمثل «سكاراموش» :

- ان هذا المسخ يذكرنى يا سيدى ، بقصة طريفة . ففى سنة ١٧٤٦ ، اتممت أولى مراحل الرهبنة ، تحت ارشاد الاب « ماجيتو » ، وكان كهلا ذا معرفة عميقة وخلق قويم . ولعلك تذكر ان الدمى « الاراجوزات » - التى كان يقصد بها تلهية الاطفال - لقيت فى تلك الفترة اقبالا غير عادى من النساء ، بل والرجال - شيبا وشبانا - وصار لها شان فى باريس ، ففصت بها حوانيت تجار الازياء ، واصبح المرء

يلقاها عند ذوى المكانة ، ولم يعد من النادر أن يرى المرء فى الطرق والمتنزهات شخصا وقورا ينهمك فى ترقيص دميته . وما كان للسن ، ولا للشخصية ، ولا للمهنة أن تقى الاب ماجيتو من العدوى . فما ان رأى كل امرىء منصرفا الى ترقيص انسان صغير من الورق المقوى ، حتى أخذت أصابعه تنم عن نفاد صبر لم يلبث أن أصبح فوق الاحتمال . وفى ذات يوم ، كان فى زيارة مسيو « شوفيل » - وكان محاميا ونائبا - فى مسألة مهمة للطائفة بأسرها ، فرأى دمية مدلاة من رف المدفأة ، فتولاه اغراء فظيع لأن يجذب خيطها . ولم يقو على مغالبة هذه الرغبة الجامحة الا بجهد كبير . ولكنها لازمته ولم تدع له سبيلا الى الراحة .. وسيطرت عليه فى دراساته ، وفى تأملاته ، وفى صلواته ، وفى الكنيسة ، وفى اجتماع الكهنة ، وفى جلسات الاعتراف ، وفى اعتلائه المنبر .. وبعد أيام قضاها معذبا بهذه النزوة المضنية ، افضى بهذه الحال غير العادية لرئيس الطائفة ، الذى كان - لحسن الحظ - فى باريس ، فى تلك الاونة . **وكان هذا دكتورا شهيرا ، وأميرا من امراء كنيسة (ميلان) ، فنصح الاب ماجيتو بأن يرضى رغبة بريئة - من حيث المبدأ - ملحاحة من حيث الاغراء ، وكان كبتها يهدد باحداث أفدح اضطراب فى نفس من يقاومها** . وبناء على نصيحة الرئيس - أو بالاحرى ، صدوعا بأمره - زار الاب ماجيتو دار مسيو شوفيل ، الذى استقبله فى مكتبه ، كما فعل فى المرة الاولى . وهناك ، وجد الدمية لا تزال معلقة فوق المدفأة ، فتقدم منها بلهفة ، وسأل مضيفه أن يتكرم فيسمح له بأن يشد الخيط لحظة . ووافق المحامى عن طيب خاطر ، واعترف له بأنه كان فى بعض الاحيان ، يعمد الى ترقيص « سكاراموش » - وهو اسم الدمية - ليستحضر دعاواه .. وانه فى اليوم السابق بالذات ، نظم على حركات

« سكاراموش » مرافعته لصـالح امراة اتهمت زورا بدس السم لزوجها . وأمسك الاب ماجيتو الخيط وهو يرتجف ، ورأى « سكاراموش » يتحرك فوق يده حركات منفعـلة ، كأنما أصابه مس من الجن . وما أن ارضى نزوته بهذا الشكل، حتى تخلص من الحاحها !

وقال بروتو : « أن قصتك لا تدهشنى يا أبى ، فكم نرى من هذه النزوات الملحة . ولكنها لا تنشأ دائمـا عن الدمى الورقية » .

***

ولم يكن الاب لونجمار — وهو رجل دين — يتكلم عن الدين اطلاقا ، بينما كان بروتو لا ينفك يخوض فيـه . واذ كان يشعر بعطف على البرنابى ، فقد كان يجد ملهاة فى أن يحرجه وان يعاكسه بالاعتراضات على أمور متباينة من العقيـدة المسيحية. وفى ذات مرة ، كان يصنع دميا من نوع «زيرلين» و « سكاراموش » ، فقال للقس : « عنـدما أتدبر الاحداث التى أدت بنا الى ما وصـلنا اليه ، أسـائل نفسى عن أى الاطراف — فى هـذا الكون المجنون — كان الاكثر جنونا .. ولست بعيدا عن أن أعتقد أن هذا الطرف هو ذلك الذى كان فى القصر الملكى » . فأجاب رجل الدين :

— ان الناس جميعا يا سيدى ، يفقدون حجاهم — كمـا فعل نبوخذنصر — عندمايتخلى الله عنهم.. ولكن مامن امرىء من أبناء أيامنا ، أغرق فى الجهل والخطأ كما غاص السيد الاسقف فوشيه ، وما من امرىء كان — كذلك — شؤما على المملكة ، قدر ما كان هو . ولا بد ان الله كان شـديد السخط على فرنسا ، حتى أرسل لها السيد الاسقف فوشيه !

— يبدو لى اننا قد رأينا آخرين أشد اساءة من هذا التعس فوشيه .

ـ لقد أظهر السيدالاسقف جريجوار ـ هو الآخر ـ كثيرا من الشر .

ـ وبريسو ، ودانتون ، ومارا ، ومائة غيرهم .. فما رايك يا أبت ؟

ـ هؤلاء من الدنيويين يا سيدى ، ولا يحمل الدنيويون ما يحمله رجال الدين من تبعات . فهم لا يستندون فيما يأتون من اساءة الى سلطة عليا ، وليست ذنوبهم مطلقة ، بعيدة عن الغفران .

ـ وربك يا أبت ؟.. ما قولك فى مسلكه ازاء الثورة الراهنة ؟

ـ لست أفهمك يا سيدى .

ـ يقول ابيقور : اما أن الله يريد أن يمنع الشر ولايستطيع ، واما انه يستطيع منعه ولكنه لا يريد ، واما انه لا يستطيع ولا يريد ، واما انه يريد ويستطيع . **فان كان يريد ولا يستطيع فهو عاجز ، وان كان قادرا ولا يريد فهو شرير ، وان كان يريد ويستطيع ، فلماذا لا يفعل يا أبى ؟**

ورمى بروتو مجادله بنظرة ملؤها الاغتباط ، فأجاب رجل الدين : « ليس هناك ما هو اتعس من هذه الصعاب التى تثيرها يا سيدى . وكلما أنعمت النظر فى حجج الملحدين ، يتراءى لى كما لو اننى كنت أرى نملا يحشد بعض أعواد العشب ليسد الطريق على سيل ينقض من فوق الجبال . فاعفنى من مجادلتك ، فانى امام حجج اكثر مما ينبغى ، ولكن المعقول منها اقل مما ينبغى . وفيما عدا ذلك ، فبوسعك ان تجد ما يفحمك فى مؤلفات الاسقف جينيه وعشرين غيره . ولن أقول لك سوى ان ما اوردته عن أبيقور ليس سوى طيشا وجهالة ، اذ ليس للمرء ان يحكم على الله كما لو كان انسانا ، وعلى ضوء المقاييس الخلقية للبشر . لا بأس ياسيدى !..

فان الزنادقة ـ من « سيلس » حتى « بيل » و « فولتير » ـ قد أضلوا السذج الجهلة بمثل هذه المغالطات ! »

فقال بروتو : « الا انظر يا أبى ، الى أى مدى يذهب بك ايمانك . فانت لا تكتفى بأن تحصر الحقيقة كلها فى فقه عقيدتك ، بل ترفض كذلك ان ترى شيئا من الحق فى آراء كثير من العباقرة الذين يخالفونك فى التفكير » . ورد لونجمار قائلا : « انك تخطىء كل الخطأ يا سيدى ، فانى اعتقد انه ما من شىء يعتبر خطأ بأكمله ، فى تفكير أى انسان . فالملحدون يشغلون ادنى درجة فى سلم المعرفة . وعند هذه الدرجة ـ رغم بعدها ـ ينفذ بصيص من العقل وومضات من الحقيقة . وحتى عندما تكتنف الظلمات الانسان ، فانه يتطلع الى حيث اودع الله الذكاء .. وهذا ما جرى للوسيفر » . فقال بروتو : « حسنا يا سيدى ، اننى لن اضارعك كرما ، وسأعترف لك بأننى لا اجد البتة فى كل آراء اللاهوتيين ذرة من الادراك السليم » .

على انه لم يك راغبا فى الطعن فى الدين ، اذ كان يراه ضروريا للناس .. ولم يكن يأمل سوى ان يكون القساوسة فلاسفة وليسوا مجرد أهل جدال . وكان ينعى على اليعاقبة انهم كانوا راغبين فى ان يبدلوا الدين المسيحى بدين آخر اكثر فتوة ، واشد دهاء .. دين الحرية ، المساواة ، الجمهورية ، الوطن .. ولقد لاحظ ان الاديان فى عنفوان شبابها ، تكون فى اوج العنف والقسوة ، ولكنها تفتر كلما تقادم بها العهد .. ومن ثم كان يرجو ان تبدى الكاثوليكية ـ التى التهمت كثيرا من الضحايا فى فتوتها ، والتى اثقلت السنون كاهلها ، واخمدت جشعها ـ اكتفاء وشبعا ، فتقتصر على احراق اربعة او خمسة من الكفرة فى كل مائة سنة . واردف قائلا : « وفيما عدا ذلك ، فقد كنت دائما على

وئام مع تعاليم اللاهوت والمسيحية . وكان لدى – فى ضيعة (ليزيليت) – خورى ، فكان القداس يقام فى يوم الاحد من كل اسبوع ، وكان كل ضيوفى يحضرونه ويشتركون فيه .. وكان الفلاسفة اكثرهم استيعابا ، وفتيات الاوبرا اشدهم حرارة .. كنت سعيدا اذ ذاك ، أنعم بأصدقاء عديدين » .

فصاح الاب لونجمار : « اصدقاء ! اصدقاء !.. آه ، يا سيدى . افتحسب انهم كانوا يحبونك .. كل هؤلاء الفلاسفة ، وكل اولئك الفانيات ؟.. لقد اردوا نفسك دركا يشق فيه على الله نفسه – لو كان فى مكانك – ان يعرف معبدا واحدا من المعابد التى رفع صرحها من اجل مجده ! »

***

واصل الاب لونجمار الاقامة فى مسكن ملتزم الضرائب ثمانية ايام ، دون ان يزعجه شىء . وكان يؤدى فرائض مذهبه ما استطاع ، وينهض عن مضجعه المحشو بالقش ، ليركع على البلاط ، ويتلو صلوات الليل . ومع انهما لم يؤتيا من الطعام سوى لقيمات زرية ، فانه كان يحرص على الصوم والامساك . **وسأله الفيلسوف يوما ، وهو يشهد حالات تقشفه باشفاق وابتسام : « هل تعتقد حقا ان الله يجد شيئا من المسرة فى رؤيتك وانت تتحمل البرد والجوع ، على هذا النحو ؟ » . فأجاب الراهب : « لقد ضرب الرب نفسه لنا مثلا فى التجلد والاحتمال » .**

وفى اليوم التاسع لاقامة البرنابى فى مخزن الفيلسوف ، خرج هذا فى الفسق حاملا دميه الى « جولى » ، تاجر اللعب بشارع (نيف ديه بيتى شان) . وفى عودته سعيدا لبيعها عن آخرها ، فوجىء فى الميدان الذى كان يسمى – من قبل – (كاروسيل) ، بفتاة فى ثوب من الحرير الازرق ، حفت

اطرافه بفراء السمور ، اقبلت عليه مهـــرعة – فى شىء من العرج – وألقت بنفسها بين ذراعيه ، وتعلقت به متشبثة ، على نحو ما يفعل الملهوفون فى كل الازمان .

وكانت ترتجف ،ويكاد المرء يسمع دقات قلبها متسارعة .

وأعجب « بروتو » – الكهل الذى كان من هـواة المسرح – بهذا المظهر العاطفى المؤثر من فتاة من العامة ، وخطر له ان الممثلة « روكود » كانت قمينة بأن تفيد منها ، لو انه كان قد قدر لها ان تراها .. وتكلمت الفتاة بأنفاس متهدجة ، وهى تخفض صوتها خشية ان يسمعها المارة : « خذنى ايها المواطن ، اشفق على وخبئنى !.. انهم فى غرفتى بشارع فرومنتو . وقد لذت بمسكن جارتى « فلورا » اثناء صعودهم ، وقفزت من النافذة الى الطـــريق ، فالتوت قدمى .. لقد جاءوا ، يبغون ان يلقوا بى فى السجن ، وان يقضوا على .. لقد قضوا – فى الاسبوع الماضى – على ڤيرجينى » .

وادرك « بروتو » انها كانت تتحدث عن مندوبى اللجنـة الثورية فى القطاع ، او عن مبعوثى لجنة الامن العام . وكان فى الجمعية العامة للقطاع – اذذاك – مدعيا عاما من اهـل الفضيلة يدعى المواطن « شـــوميت » ، راح يتعقب بنات الهوى ، ويراهن الد اعداء الجمهورية .. كان يبغى ان يرفع لواء الاخلاق . والحق ان فتيات (باليه ايجالتيه) – دار العدل – (٧٠) كن قليلات الوطنية . فقد كن آسفات على العهد القـــديم ، ولم يكن يخفين ذلك البتة . وقد سيقت كثيرات منهن الى المقصلة كمشتركات فى المؤامرات ، فلم يزد مصيرهن الاليم زميلاتهن الا تماديا .

وسأل المواطن « بروتو » الفتاة المرتاعة عن الجريرة التى

(٧٠) فتيات الهوى اللاتى كن يتصيدن الرجال فى المنطقة المحيطة بقصر العدل .

استصدروا من أجلها امرا بالقبض عليها . فأقسمت بأنها لم تكن على علم بجريرة ما ، وانها لم تأت ما تؤاخذ عليه . فقال لها بروتو : « حسنا يا ابنتى ، ليس لك ما تخشينه ، اذا لم يكن هناك ما يثير الشبهات حولك . فاذهبى الى مخدعك ، ودعينى فى هدوئى ! » .. واذاك اعترفت بكل شىء :

- لقد مزقت شعارى القومى ، وهتفت : « ليحى الملك ! »

وسار معها على ضفة النهر الخالية من المارة . وقالت وهى متعلقة بذراعه : « **ليس هذا لأننى احب الملك ، فأنا - كما لابد ان تدرك - لم اعرفه البتة ، ولعله لم يكن رجلا يختلف عن الآخرين . ولكن هؤلاء اشرار ، يبدون القسوة نحو الفتيات المسكينات** . انهم يعذبوننى ، ويكدروننى ، ويؤذوننى بكل الطرق ، فهم يودون ان يحولوا بينى وبين ممارسة مهنتى .. وأنا لم اوت سواها . اتظن اننى كنت اقارفها لو اننى وجدت غيرها ؟ .. ما الذى يبتغون ؟ انهم يبطشون بالصغار ، والضعاف .. ببائع اللبن ، والفحام ، وحامل الماء ، والغسالة .. انهم لن يهدأوا حتى يثيروا ضدهم الفقراء جميعا ! »

وتأملها ، فاذا بها تبدو طفلة . وكانت قد فثأت خوفها ، وبدت شبه مبتسمة ، وهى تسير بجانبه خفيفة برغم عرجها . وسألها عن اسمها ، فأجابت بأنها تدعى «اثينائيس» ، وانها كانت فى السادسة عشرة . وعرض عليها ان يرافقها الى حيث يحلو لها الذهاب .. ولم تكن تعرف أحدا فى باريس ، ولكنها اوتيت عمة تعمل خادما فى (باليسو) ، تطمع فى ان تأويها لديها . وحسم « بروتو » امره ، قائلا : « تعالى معى يا صغيرتى ! » .. وقادها ، وهى تستند الى ذراعه . فلما دخل مسكنه ، ألفى الاب لونجمار يقرأ أوراده ، فأشار الى

« اثينائيس » – وهو يمسك بيدها – وقال :

– اليك يا أبت ، فتاة شارع فرومانتو ، التى هتفت : « ليحى الملك ! » .. ان شرطة الثورة يتعقبونها ، وليس لها مأوى ، فهل تسمح بأن تقضى ليلتها هنا ؟

فأقفل الأب لونجمار كتاب صلواته ، وقال : « اذا كنت قد أحسنت الفهم ، فأنت تسألنى – يا سيدى – عما اذا كان فى وسع هذه الفتاة المعرضة للاعتقال مثلى ، ان تقضى الليل – من أجل سلامتها المؤقتة – فى عين الحجرة التى اقضى فيها ليلى » .

– أجل ، يا أبت .

– فبأى حق اعارض فى هذا ؟.. وهل أجزم بأننى احسن منها قدرا ، حتى اتأذى من وجودها ؟

وقضى ليلته فى مقعد قديم متداع ، مؤكدا ان بوسعه ان ينام فيه هنيئا .. ونامت « اثينائيس » على الحشـيـة ، بينما استلقى « بروتو » على المضجع المحشو بالقش ، واطفأ الشمعة .

وراحت اجراس الكنائس تدق مؤذنة بمرور الساعات وانصاف الساعات ، دون أن يغمض لبروتو جفن ، وهو يسمع انفاس رجل الدين والفتاة ممتزجة . وبزغ القمر – شاهد ومرآة غرامياته القديمة – فأرسل الى الغرفة شعاعا من فضة استلقى على شعر « اثينائيس » الاشقر ، واهدابها الذهبية ، وانفها الدقيق ، وفمها المستدير الاحمر .. وهى نائمة وقد شدت قبضتيها . فهمس بروتو لنفسه : **« هاهى ذى .. عدو رهيب للجمهورية ! »**

***

وعندما فتحت « اثينائيس » عينيها ، كان النهار يملأ الكون ، وقد خرج رجل الدين ، وجلس « بروتو » ـ تحت الكوة ـ يقرأ اشعار « لوكريس » ، ويتعلم من عرائس الشعر اللاتينى كيف يعيش بلا مخاوف ولا رغبات .. وان كان الندم والقلق ينهشانه . وذهلت « اثينائيس » حين فتحت عينيها فرات ـ فوق رأسها ـ دعائم سقف مخزن المأكولات . ثم استرجعت الأحداث ، فابتسمت لمنقذها ، وبسطت اليه يديها الصغيرتين الجميلتين المتسختين ، لكى تلاطفه . ثم نهضت عن مضجعها ، فأشارت باصبعها الى المقعد المتداعى ، الذى قضى رجل الدين فيه ليلته . وتساءلت : « هل رحل ؟ .. نبئنى ، ألم يذهب ليشى بى ؟ »

ـ كلا يا صغيرتى ، فما وجد رجل أشد امانة من هذا الاحمق الكهل !

وسألته « اثينائيس » عن حماقة الرجل الطيب ، فلما قال لها « بروتو » ان الدين هو حماقته ، انحت عليه بعتب جدى لهذا القول ، واردفت ان من لا دين لهم اسوأ حالا من الدواب ، وانها كثيرا ما تصلى لله ، املا فى ان يغفر لها خطاياها ، وان يدخلها فى رحمته القدسية . وما لبثت ان لمحت « بروتو » ممسكا بكتاب ، فظنته كتاب القداس ، وقالت : « الا ترى انك ـ انت الآخر ـ تتلو صلواتك ؟ لسوف يثيبك الله على ما فعلت من اجلى » . واذ قال بروتو ان الكتاب لم يكن كتاب قداس ، وانه كتب قبل ان تظهر فى الدنيا فكرة القداس ، ظنت الفتاة انه كتاب « تفسير الاحلام » ، فسألته عما اذا كان يضم تفسيرا لحلم عجيب رأته . ولم تكن على المام بالقراءة ، ولا كانت ـ لذلك ـ تعرف من الكتب سوى هذين الكتابين : القداس ، وتفسير الاحلام . فلما انبأها « بروتو » بأن كتابه لم يكن يفسر سوى حلم الحياة ، وجدت



— وربك يا أبت ؟ .. ما قولك فى مسلكه ازاء الثورة ؟

(ص ١٩٧)

الحسناء ان جوابه عسير البيان ، عصيا على الفهم ، ونهضت فغمست انفها فى ماء وعاء من الفخار ، حل - لدى بروتو - محل الآنية الفضية التى كان يستخدمها للاغتسال ، فيما مضى . ثم رجلت شعرها أمام المرآة - التى كان مضيفها يمشط امامها لحيته - بعناية ودقة واهتمام . وكانت تنطق ببعض العبارات ، على فترات طويلة ، وهى ترفع ذراعيها فوق رأسها :

- **انك كنت مثريا ، يوما ما .**

- ما الذى يحملك على ان تظنى هذا ؟

- **لست ادرى . ولكنك كنت غنيا ، وكنت ارستقراطيا .. اننى موقنة !**

واخرجت من جيبها رصيعة فضية تمثل العذراء - فى اطار مستدير من العاج - وقطعة من السكر ، وخيطا ، ومقصا ، وقداحة ، وابرتين أو ثلاثا اختارت منها واحدة مناسبة ، وعكفت على اصلاح « جونلتها » التى كانت ممزقة فى اكثر من موضع .. وقال بروتو وهو يعطيها شارة تحمل الوان الشعار القومى : « ضعى هذه فوق رأسك يا صغيرتى، من اجل سلامتك » . فأجابته : **« سأفعل عن طيب خاطر يا سيدى .. ولكن ، حبا فيك ، وليس عن حب للأمة ! »**

ولما ارتدت ثيابها ، وظهرت فى خير مظهر ، امسكت « جونلتها » بيديها ، وادت له الاحترام كما تعلمت فى قريتها . وقالت : « اننى خادمتك المتواضعة يا سيدى » . وكانت على استعداد لأن ترد الى منقذها جميله بكافة الطرق ، ولكنها طابت نفسا اذ وجدت انه لم يطلب شيئا ، فلم يكن عليها ان تقدم شيئا . وبدا لها ان من الأخلق بها ان ترضى

بهذا ، وان تحتشم . ووضع « بروتو » فى يدها بضع اوراق مالية لتستقل المركبة الى (باليسو) . وكانت هذه الاوراق نصف ما يمتلك . **ومع انه كان معروفا باسرافه فى الاغداق على النساء ، الا انه لم يكن قد اقتسم يوما ثروته مع اية امرأة بالتساوى !**

وسألته عن اسمه ، فقال : «اننى ادعى موريس» . وفتح لها الباب وهو آسف ، وقال : « وداعا ، يا أثينائيس ! » . فقبلته قائلة : « عندما تفكر فى يا مسيو موريس ، ادعنى باسم « مارت » ، فهذا هو الاسم الذى عمدت به ، والذى أنادى به فى القرية .. وداعا ، وشكرا .. وسأظل خادمتك يا سيد موريس » .

الفصل الخامس عشر



• لم يكن ثمة بد من اخلاء السجون التى غصت بمن فيها .. ولم يكن ثمة بد من اصدار الاحكام .. كان لا بد من أن يعمل القضاء بدون راحة ولا هوادة . وكان القضاة ، وهم جلوس أمام الجدران المزدانة بالبلط والقلنسوات الحمراء - كأنها الزنابق الحمراء - يحرصون على وقار اسلافهم فى العهد الملكى ، وعلى هدوئهم الرهيب . وكان المدعى العام وتوابه يتداعون تعبا ، وقد احتقنت عيونهم من السهر والشراب ، فلم يكن بوسعهم ان ينفضوا عنهم الارهاق الا بجهد عنيف ، وسوء صحتهم يثير الاسى فى النفوس . وكان المحلفون متباينى الاصل والشخصية ، بعضهم متعلم ، والآخرون جهلة ، وبينهم اللئام والكرام ، لينو القلوب

والباطشون ، المنافقون والمخلصون .. ولكنهم كانوا جميعا – حين يحدق الخطر بالوطن والجمهورية – يشعرون ، أو يتظاهرون بالشعور ، بكروب واحدة .. وبأنهم يكتوون بمين اللهب ، وبأنهم جميعا ضوارى – ان عن صدق أو عن خوف – لا يؤلفون سوى كائنا واحداً ، ورأسا صلبا مهتاجا واحدا ، ونفسا واحدة .. نفس وحش متطرف ، ينتج الموت بكثرة فياضة ، بحكم الممارسة الطبيعية لوظائفه . وكان الطيبون منهم أو من قست مشاعرهم ، يستيقظون فجأة على لذعة تحرك رحمتهم ، فيبرئون – وهم يذرفون الدموع – ساحة متهم يكونون قد ادانوه قبل ساعة ، فى فيض من التهزىء والتحقير .. ولكى يمضوا قدما فى مهمتهم ، كانوا يتبعون املاءات قلوبهم فى اندفاع قاس .

كانوا يصدرون أحكامهم وهم محمومون ، يراودهم النعاس ، من جراء الأفراط فى العمل .. تحت ألوان التحريض والاوامر الصادرة من الشعب صاحب السلطان ، وتحت تهديدات « السانكيلوت » والحائكات ، الذين كانوا يحتشدون فى المحاكم والاماكن العامة .. كانوا يصدرون احكامهم بموجب شهادات مفروضة غصبا على الشهود ، وبموجب تحقيقات متهوسة ، فى جو موبوء يشل العقول ويرسل طنينا فى الاذان ، ونبضا قويا فى شرايين الصدوغ ، ويفرض غشاوة من الدم على العيون . وأخذت الهمهمات الغامضة تسرى بين الشعب عن محلفين أفسدهم ذهب المتهمين . ولكن المحلفين – عن بكرة أبيهم – ردوا على هذه الشائعات باحتجاجات أبية ، وبأحكام خالية من الرحمة . وقصارى القول انهم لم يكونوا اطهر ولا افضل من غيرهم . وفى اغلب الاحيان ، تكون البراءة حظا ، وليست فضيلة . وكان أى امرىء يقبل أن يضع نفسه موضعهم ، خليقا بأن

يتصرف على شاكلتهم ، وأن يقدم بنفس متهاونة على هذه الاعباء الرهيبة .

وبعد طول انتظار ، أقبلت انتوانيت (٧١) اخيرا ، لتجلس - بثوب أسود - فى المقعد المشئوم ، وسط عاصفة من البغضاء ، لم يفرض احترام الاجراءات الرسمية خلالها ، سوى اليقين من الحكم المرتقب صدوره . وأخذت المتهمة تجيب عن الاسئلة القاتلة بوحى من غريزة البقاء أحيانا ، وبكبريائها المعهودة فى أحيان أخرى .. وبجلال الام - ذات مرة - من جراء وقاحة أحد متهميها . ولم يكن الغضب والسباب مباحين لغير الشهود . أما الدفاع ، فقد جمد رعبا . وكانت المحكمة قد آلت على نفسها أن تحكم وفقا للقواعد ، فظلت تنتظر أن ينتهى كل هذا ، لتطوح برأس النمسوية فى وجه أوربا .

***

بعد ثلاثة أيام من اعدام « مارى انتوانيت » ، دعى « جاميلان » الى تلبية المواطن « فورتونيه تروبير » ، الذى كان يحتضر على بعد ثلاثين خطوة من المكتب العسكرى ، حيث أفنى حياته .. وعلى فراش من الخيش ، فى صومعة برنابى مبعد . . وكان رأسه الممتقع غائصا فى الوسادة ، واتجه انسانا عينيه - اللتين لم تعودا تبصران - الى ناحية « ايفاريست » ، وكأنهما صنعا من زجاج .. وأمسكت يده الجافة المتصلبة يد صديقه ، وضغطتها بقوة لم تكن مرتقبة . وكان قد تقيأ دما ثلاث مرات فى يومين .. وحاول أن يتكلم ، فى صوت انبعث - فى البداية - مختنقا ضعيفا كأنه همهمة ،

(٧١) الملكة مارى انتوانيت .

ثم أخذ يعلو ويعمق : « واتنيى ! واتنيى ! (٧٢) .. جوردان رد العدو الى معسكره (٧٣) .. وفك الحصار عن موبيج .. لقد استعدنا مارشيين (٧٤). هكذا سيكون .. هذا ماسوف يكون ! » . وابتسم ..

وما كان ذلك هذيانا ، بل انهـــا كانت لمحة من الواقع ، أومضت فى ذهن كانت الظلمات الابدية توشك أن تخيم عليه. فمنذ ذلك الحين بدا ان الغزو قد أوقف ، اذ تبين القـــادة - وقد هزهم الارهاب - ان لا خير لهم الا فى الانتصـــار . وما أخفق تطوع المحاربين فى تحقيقه ، استطاع جيش وافر العدد والنظام ، بفضل الاجبار والالزام ، أن يتيحه. ولم يبق سوى جهد واحد ، ثم يقدر للجمهورية النجاة .

وبعد غيبوبة دامت نصف الساعة ، دبت الحيـــاة فى وجه « فورتونيه تروبير » الذى كان الموت قد أيبسه ، وارتفعت يداه ، وأشار لصديقه بأصبعه الى قطعة الاثاث الوحيدة فى الغرفة ، وكانت مكتبا من خشب الجوز .. وقال بصـــوت متهدج واهن ، وان أسفر عن ذهن صـــاف : « أوصيك يا صديقى بديونى ، كما فعل أوداميداس : ثلاثمائة وعشرين ليبرة ، ستجد بيانها .. فى هذه الكراسة الحمراء .. وداعا

---

(٧٢) واتنيى : منطقة فى شمال فرنسا ، الى الجنوب من مدينة (ليل) . وفيها سجل « جوردان » انتصاره على النمسويين فى سنة ١٧٩٣ .

(٧٣) المارشال جان - بابتيست جوردان : ولد فى ليموج (١٧٦٢-١٨٣٣) ، وانتصر فى موقعة (فلورو) سنة ١٧٩٤ . وقاد الجيوش الفرنسية فى اسبانيا بين سنتى ١٨٠٨ و١٨١٤ .

(٧٤) مارشيين : منطقة فى شمالى فرنسا ، على نهر (سكارب) .

يا جاميلان ! .. لا تغفـــل ، بل كن يقظـــا فى الذود عن الجمهورية . الا قد ابلغت ! »

وهبطت على الصومعة ظلمات الليل . وتصاعدت أنفـاس المحتضر فى حشرجة مختنقة ، وأخذت يداه تخمشان غطـاء الفراش . وعندما انتصف الليل ، لفظ كلمات غير مترابطة : « مزيد من البارود !.. ارفعوا البنادق .. الصحة ؟ جيـدة جدا .. انزلوا هـــذه الاجراس .. » . وفارق الدنيا فى الساعة الخامسة من الصباح .

وعرض جثمانه ـ بأمر من القطاع ـ فى صـحن كنيسة البرنابيين السابقة ، عند قاعدة مذبح الوطن ، على سرير من أسرة المعسكر ، وقد أحيط بالعلم ذى الالوان الثلاثة ، وكلل جبينه بالغار .. وأحاط بالسرير الجنائزى اثنا عشر كهلا ارتدوا الوشاح اللاتينى ، وأمسك كل منهم فى يده بفرع من سعف النخيل ، واثنتا عشرة فتـاة فى ثياب ذات أذيال جرارة ، وقد حملن الزهور . وعند قدمى الميت ، كان ثمـة طفلان أمسك كل منهما مشعلا منكسا . **وتبين «ايفاريست» ان أحدهما ابنة بواب داره « جوزفين » ، التى ذكره وقارها ـ وهى بعد طفلة ـ وجمالها الفاتن ، بآلهـــة الحب والموت التى كان الرومانيون يصوغونها على توابيتهم .**

وسار موكب الجنازة الى مقبرة «سانت أندريه ديز آر» ، على انغام وكلمات نشيدى : « المارسلييز » و « ليكن ! » .. وبكى ايفاريست وهو يطبع قبلة الوداع على جبين « فورتونيه تروبير» .. بكى على نفسه ، وهو يحسد ذلك الذى استراح، وقد أدى مهمته .

واذ عاد الى داره ، تلقى اعلانا بأنه قد عين عضـــوا فى

المجلس العام للجمعية العامة (الكومون) ، فقد ظل مرشحا أربعة أشهر ، وانتخب دون منافس بعد أن أجريت عملية الاقتراع عدة مرات ، بحضور ثلاثين ناخبا . فان الانتخاب لم يعد يجرى بالتصويت بعد أن أقفرت لجان القطاعات ، ولم يعد للأغنياء والفقراء من هم سوى التهرب من المهام العامة . ولم تعد أعظم الاحداث تثير تحمسا ولا فضولا ، ولا عادت الصحف تلقى من يقرأها ، حتى لقد داخل ايفاريست الشك فى انه لم يعد بين سكان العاصمة السبعمائة ألف ، سوى ثلاثة آلاف أو أربعة يحتفظون بالروح الجمهورية !

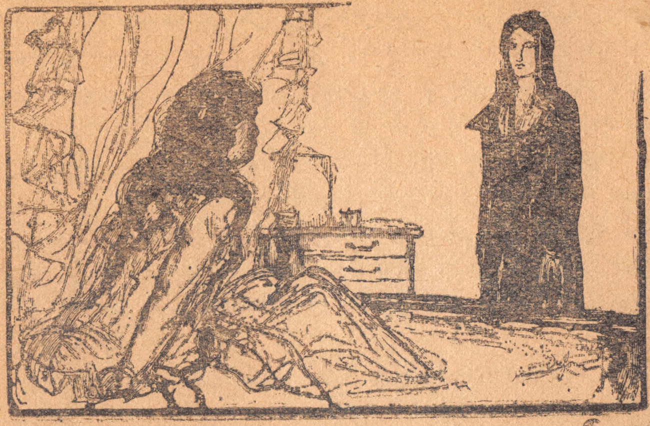
وفى ذلك اليوم ، سيق الواحد والعشرون الى المحاكمة .. وسواء كانوا أبرياء أو كانوا مذنبين يحملون وزر مصائب الجمهورية وجرائمها ، فانهم كانوا متعجرفين ، ومتهورين ، وطامعين ، ونزقين .. كانوا معتدلين وعنيفين فى آن واحد ، ضعافا فى المطاردة وفى العفو ، متعجلين فى اعلان الحرب ، بطيئين فى السير بها .. **وعندما سيقوا الى المحكمة ـ جزاء ما ضربوه من مثال ـ لم يكن حالهم قد تغير ، فقد كانوا شباب الثورة الصاخب .. وكانوا سحرها وبهاءها .** فهذا القاضى الذى كان يوشك أن يحقق معهم فى تحيز مرسوم ، وهذا المدعى الشاحب الذى كان يعد ـ على مكتبه ـ موتهم وعارهم ، وهؤلاء المحلفون الذين كانوا يتأهبون ليقضوا على دفاعهم ، وهذا الجمهور الذى أم المحكمة ، والذى كان يغرقهم بالسباب والسخط .. **القاضى والمحلفون والجمهور كانوا ـ من قبل ـ يصفقون لبلاغتهم ، ويطرون مواهبهم**

وفضائلهم . ولكنهم لم يعودوا يذكرون ذلك قط !

لقد اتخذ « ايفاريست » يوما من « فيرجنيو » ربا ، ومن « بريسو » ملهما . ولكنه لم يعد يذكر ذلك البتة . واذا كان قد أبقى فى ذاكرته على أثر من اعجابه القديم ، فانما كان ذلك لينبهه الى أن هذين الوغدين قد فتنا خيرة المواطنين وغررا بهم .

وفيما كان يدخل داره - بعد الجلسة - سمع صراخا يمزق القلوب .. كانت « جوزفين » الصغيرة تتلقى عقابا من أمها ، لأنها لعبت فى الميدان مع الصبية المشردين ، فاتسخ ثوبها الابيض الجميل ، الذى ارتدته لحضور جنازة المواطن تروبير الفخمة !

الفصل السادس عشر



• بعد أن قضى « أيفاريست » ثلاثة أشهر ، يقدم فيها – كل يوم – القرابين للوطن ، من الضحايا المعروفين والمغمورين ، عرضت عليه قضية ، كان المتهم فيها غريمه ..
فقد كان – مذ تولى منصبه فى المحكمة – يبحث بعينين متفرستين ، بين الحشود المتوافدة التى كانت تمر أمام بصره ، عن الرجل الذى غرر بايلودى ، والذى كان خياله المكدود قد رسم له صورة كانت بعض جوانبها دقيقة . فتمثله شابا جميلا ، وقحا . وداخله يقين بأنه كان ممن هاجروا الى انجلترا . وخيل اليه أنه قد اكتشف فى شخص مهاجر شاب – يدعى « موبيل » – كان قد عاد الى فرنسا فوشى به صاحب الفندق الذى نزل فيه – فى (باسى) –

وقبض عليه ، وأحيلت قضيته مع ألف قضية أخرى ، على محكمة (فوكييه تانفيل) . وقد وجدت معه خطابات اعتبرها الاتهـام أدلة على مؤامرة حاك شباكهـا « موبيل » وعملاء « بيت » ، ولكنها لم تكن ــ فى الواقع ــ سوى رسائل كتبها للمهاجر صيارفة لندن ، الذين أودع أمواله لديهم . وبدا جليا أن « موبيل » ــ كشـاب جميل ــ لم يكن منصرفا الا الى الاناقة والتظرف . وقد وجـد فى مذكراته آثر يشى بعلاقات مع أسبانيـــا ، التى كانت ــ اذ ذاك ــ على حـرب مع فرنسا .. على أن هـذا الاثر لم يكن ــ فى الواقع ــ سوى مراسـلات ذات طابع شخصى .. **واذا لم تكن النيابة قـد أمرت باخلاء سبيله ، فانما كان ذلك احتراما للمبدأ الذى يقضى بأنه لا ينبغى للعدالة أن تتعجل قط افلات أى سجين من قبضتها !**

وكان جاميـــلان قـد اطلع ــ فى غرفة المداولة ــ على التحقيق الابتـدائى مع « موبيل » ، فبهت لصـفات ذلك الشاب ، اذ رآها مطابقة لتلك التى كان يعزوها الى الرجل الذى استغل ثقـة « ايلودى » . ومن ثم فقـد خـلا الى اضبارة القضية ساعات طويلة ، فى غرفة كاتب المحكمة ، وراح يدرسها بحمية بالغة . وتعززت شبهاته ــ الى درجة غريبة ــ عندما وجـد فى مفكرة قديمة للمهـاجر ، عنوان « لامور بانتر » ، وان ارتبط ــ فى الحقيقـة ــ بعنـوان « سانج فير » (القرد الاخضر) ، و « لوحة ولى العهد » (السابق) ، وعدة متاجر أخرى للحفر واللوحات . ولكنه لم يكد يعلم انه قد وجدت فى المفكرة عينها بضع أوراق من قرنفلة حمراء ، مودعة بعنـاية فى غلالة من ورق الحرير ، **حتى قفز الى خاطره أن القرنفل الأحمر كان الزهر المفضل لـدى « ايلودى » ، التى كانت تستنبتـه فى أصيص على**

نافذتها ، وتزين به شعرها ، وتقدمه - كما خبر بنفسه - رمزا للحب .. ومن ثم لم يعد لدى ايفاريست أدنى شك !

وما أن غدا الامر يقينا لديه ، حتى عقد العزم على سؤال « ايلودى » ، متكتما عنها - فى الوقت ذاته - الظروف التى كشفت له عن المجرم .. وبينما كان يرقى سلم داره ، اشتم - ولما يجاوز الدرجات الاولى - عبير فاكهة . وألفى «ايلودى» فى المرسم ، تعاون المواطنة جاميلان فى صنع مربى من «النارنج» . وبينما كانت ربة البيت العجوز تشعل الموقد ، وهى تتدبر - فى نفسها - وسائل الاقتصاد فى الفحم والسكر دون اضرار بجودة المربى ، جلست المواطنة « بليز » فى مقعد من القش - وقد ارتدت مرولة ، وامتلأ حجرها بالفاكهة الذهبية - تقشر ثمار «النارنج» وتلقى بها - وقد قسمتها أرباعا - الى وعاء من النحاس . وكانت أهداب غطاء رأسها مرتدة الى الوراء ؛ وخصلات من شعرها الفاحم مسدلة على جبينها المنضح بالعرق .. وقد شع منها سحر منزلى ، واشراق عائلى يوحى بأفكار ناعمة وغواية هادئة ..

وتطلعت الى حبيبها - دون أن تتحرك - بنظرة جميلة ، كأنها الذهب المصهور ، وقالت : « انظر يا ايفاريست ، اننا نعمل من أجلك !.. فلسوف تتناول طيلة الشتاء ، مربى النارنج اللذيذة ، التى ترضى معدتك وتشرح فؤادك » . ولكن جاميلان ، اقترب منها ، ولفظ فى أذنها هذا الاسم : **« جاك موبيل .. »**

وفى تلك اللحظة ، أطل الاسكافى « كومبالو » بأنفه الاحمر

خلال الباب الموارب . وكان يحمل مع بعض الاحذية التى أصلح كعوبها ، مذكرة بحساب أجره ، وقد استخدم التقويم الجديد ، خشية أن يظن به انه مواطن سيىء . ولكن المواطنة جاميلان — التى كانت تحب مراجعة حساباتها — حارت بين « فروكتيدور » و « فنديمير » (٧٥) ، وتنهدت قائلة : « رحماك يا يسوع !.. انهم يريدون تغيير كل شىء ، حتى الايام ، والشهور ، والفصول ، والشمس ، والقمر . سبحان الله !.. ما هذا الزوج من الكعوب فى ٨ فنديمير ، يا سيد كومبالو ؟ »

— القى نظرة على تقويمك يا مواطنة ، لتدركى !

فانزلت التقويم من الحائط ، والقت عليه نظرة ، ثم أشاحت عنه لفورها ، قائلة فى أسى : « انه لا يبدو مسيحيا ! » .. فقال الاسكافى : « ليس هذا فحسب يا مواطنة ، ولكن .. لم يعد لدينا سوى ثلاثة أيام أحد ، بدلا من أربعة . وليس هذا كل ما فى الامر ، بل لا بد من أن نغير طريقة حسابنا كذلك ، فلن تعود هناك دراهم ولا دنانير ، بل سينظم كل شىء على قواعد جديدة » . واذ سمعت المواطنة جاميلان هذا القول ، ارتجفت شفتاها ، ورفعت عينيها الى السقف ، وزفرت قائلة : « ما أكثر ما فعلوا ! »

***

وبينما كانت تتحسر ، كنساء المناطق الجبلية الورعات — فى الازمان الغابرة — أمسكت النار بفحمة خبيثة ، فملأت المرسم بدخان كريه ، امتزج بعبير النارنج النفاذ ، فاذا الجو

---

(٧٥) فروكتيدور : الشهر الثانى عشر من التقويم الثورى ، وكان يبدأ من ١٨ اغسطس الى ١٦ سبتمبر . وفنديمير : الشهر الاول ، ويبدأ من ٢٢ سبتمبر الى ٢١ اكتوبر .

لا يطاق . وشكت « ايلودى » من أن حلقها قد آلمها ، وطلبت فتح النافذة . على ان المواطن الاسكافى لم يكد ينصرف ، وتعود المواطنة جاميلان الى موقدها ، حتى كرر ايفاريست الاسم فى اذن المواطنة بليز : **« جاك موبيل »** .

فرمقته بشىء من الدهشة ، وتساءلت بهدوء ، دون أن تتوقف عن تقسيم احدى ثمار النارنج الى أربعة : « وبعد ؟.. جاك موبيل ؟ »

ـ انه هو !

ـ هو ؟.. من ؟

ـ الذى أعطيته قرنفلة حمراء !

وذكرت انها قد عجزت عن فهمه ، وسألته أن يزيدها ايضاحا ، فقال : **« ذلك الارستقراطى ! ذلك المهاجر ! ذلك النذل ! »** .. وهزت كتفيها ، وانكرت ـ فى لهجة طبيعية للغاية ـ انها عرفت يوما شخصا يدعى « جاك موبيل » . والحق انها لم تكن قد عرفته اطلاقا .. وأنكرت انها قدمت يوما قرنفلة حمراء لغير ايفاريست ، ولكن .. لعل الذاكرة خانتها فى هذه النقطة فقط !

ولم تكن لايفاريست دراية واسعة بالنساء ، فلم يكن بوسعه أن يتغلغل فى أعماق دخيلة ايلودى . على انه كان يراها قادرة على أن تخدع وتغش من هو أكثر منه دهاء . فقال : « لماذا تنكرين ، وانا أعرف ؟ » .. وعادت تؤكد انها لم تعرف يوما أى « موبيل » . واذ كانت قد فرغت من تقشير النارنج ، فقد طلبت ماء لأن أصابعها باتت لزجة . وأحضر اليها جاميلان وعاء . وبينما كانت تغسل يديها ، عادت تجدد انكارها ، فكر ـ بدوره ـ انه كان موقنا ، فلاذت بالصمت ، فى هذه المرة .

لم تكن تدرى ما يرمى اليه حبيبها بسؤاله ، وكانت أشد الناس بعدا عن أن تحدس ان ((موبيـــل)) هذا ـ الذى لم تسمع به البتة ، من قبل ـ كان مسوقا للمثول أمام محكمـة الثورة .. كما انها لم تفقه شيـــئا من الشكوك التى كانت موجهة اليها ، ولكنها كانت موقنة من أنها لم تقم على أساس .
وهذا ما دعاها الى ان تكف عن المحاولة ، اذ رأت ان لا أمـل لها فى تبديدها . فكفت عن انكار انها عرفت يوما شخصـا يدعى «موبيل» ، وآثرت ان تدع الغيور يتقلى على نار زائفة ، ما دام أتفه حادث كان خليقا بأن يهديه الى الحقيقة ، بين لحظة وأخرى . أما صاحبها الذى كان كاتبا فى الماضى ، فقد صار فارسا وطنيا جميلا.. وقد خاصم ـ أخيرا ـ عشيقته الارستقراطيـــــة . وكان اذا قابل « ايلودى » فى الطريق ، رمقها بنظرة تكاد تقول : « هيا ياحسناء !.. أشعر حقا بأننى خليق بأن أغفر لك مابدر منى من خيانة ، وانى على استعداد لأن أرد اليك تقديرى ! »

ومن ثم فانها لم تبذل جهدا آخر لتشفى حبيبها مما أسمته « هواجس » .. فظل جاميلان مقتنعا بأن « جاك موبيل » هو الذى أغوى ايلودى !

***

وشغلت المحكمة فى الايام التالية ـ دون هوادة ـ بسحق دعاة الاتحاد (٧٦) ، الذين كانوا أشبه باخطبوط أوشك أن يبتلع الحرية .. كانت أياما حافلة ، فراح المحلفون ـ وقـد هدهم التعب ـ يتعجلون الفراغ بأسرع ما فى وســـعهم من قضية المرأة « رولان » ، التى حرضت أو اشتركت فى جرائم

---

(٧٦) بدأت دعوة الاتحاد باقتحام الباستيل سنة ١٧٩٠ ، وكانت تهدف الي بقاء الملك ، مع تقييد سلطانه بنصوص الدستور .

عصبة أتباع « بريسو » .

وفى تلك الاثناء ، راح جاميلان يقضى الشطر الاول من كل نهار فى النيابة ، ليتعجل قضية « موبيل » . وكانت ثمة بيانات هامة فى (بوردو) ، فعمل على ايفاد مندوب ليأتى بها . وما لبثت أن وصلت . وقرأها وكيل النائب العام ، ثم ابتسم ساخرا ، وقال لايفاريست : « انها ليست ذات أهمية !.. ما من شىء فيها ! سفاسف !.. لو تأكد فقط ان هذا الكونت دى موبيل السابق قد هاجر !.. » ونجح جاميلان – أخيرا – فى مساعيه ، وتسلم الشاب موبيل قرار الاتهام ، ودعى للمثول أمام محكمة الثورة فى ١٩ بروميير (٧٧) .

وبدا رئيس المحكمة – منذ افتتاح الجلسة – بالمظهر العابس الرهيب الذى كان يعنى بالظهور به أثناء نظر القضايا الضعيفة الاسانيد . وراح وكيل المدعى يداعب اهداب ريشته ، وهو يصطنع هدوء الشخص النقى الضمير . وقرأ كاتب المحكمة قرار الاتهام ، فما استمع احد الى قرار اكثر منه ركاكة . وسأل الرئيس المتهم عما اذا لم يكن على دراية بالقوانين التى صدرت ضد المهاجرين ، فأجاب موبيل : «لقد كنت على علم بها ، وراعيتها .. وقد غادرت فرنسا وأنا أحمل جوازا صحيحا » . اما أسباب رحلته الى انجلترا ، وعودته الى فرنسا ، فقد أوضحها بطريقة مرضية . وكان لوجهه وقع فى النفوس ، وعليه امارات الصراحة ، والاباء الذى يثير الاعجاب . فكانت نسوة المحكمة يرمقنه بنظرات العطف . وزعم الاتهام انه كان قد تردد على أسبانيا ، فى

(٧٧) بروميير : الشهر الثانى فى تقويم الثورة . من ٢٣ اكتوبر الى ٢١ نوفمبر . ويلاحظ ان شهور التقويم لم تكن متلاحقة تماما ، بل كانت تفصل بعضها أيام لا حساب لها .

الوقت الذى كانت فيه هذه الدولة على حرب مع فرنسا .. فأكد انه لم يبرح (بايون) فى تلك الفترة . وبقيت هناك نقطة واحدة محوطة بالابهام . فعلى الاوراق التى كان قد القى بها فى مدفأته ـ عند القاء القبض عليه ـ والتى لم يتسن العثور على اكثر من قصاصات محترقة منها ، قرئت بعض كلمات بالاسبانية ، واسم « نييف » .

ورفض « جاك موبيل » ان يدلى بالايضاحات التى طلبت منه عن هذا الموضوع . فلما قال له رئيس المحكمة ان من مصلحته أن يدلى بالايضاح ، أجاب بأنه ليس للمرء أن يحرص على مصلحته دائما . ولم يهتم جاميلان بأن يثبت على « موبيل » سوى جريمة واحدة .. فألح على الرئيس ثلاث مرات أن يسأل المتهم عما اذا كان بوسعه ان يفسر القرنفلة التى اعتز بها ايما اعتزاز ، فاحتفظ بأوراقها الجافة فى مفكرته . **وأجاب « موبيل » بأنه لم يكن يرى نفسه مضطرا الى أن يجيب عن سؤال لم يكن يهم العدالة ، لا سيما ان أحدا لم يجد رسالة مخبأة فى هذه الزهرة !**

وذهب المحلفون الى غرفة المداولة ، وهم يشعرون ـ مقدما ـ بالعطف على هذا الشاب ، الذى بدا لهم ان قضيته المبهمة كانت تخفى أسرارا غرامية . وفى هذه المرة ، كان الوطنيون المخلصون الصادقون راغبين فى أن يبرئوا ساحته . وقال أحدهم ، وكان من الاشراف السابقين ، وقد أدى للثورة خدمات جليلة : « هل يؤاخذ على مولده ؟ .. أنا أيضا ، كان من سوء حظى أن ولدت فى بيئة ارستقراطية ! » . فأجاب جاميلان : « أجل ، ولكنك خرجت عليها . أما هو ، فقد بقى ! »

وراح يتكلم فى حمية ضد هذا المتآمر ، رسول « بيت » ، وشريك « كوبورج » ، الذى اجتاز الجبال ، وعبر البحار ،

ليستثير الأعـداء على الحرية . **وطالب باعـدام الخائن فى تحمس أيقظ روح الشـك الدائم ، وأهاج ثائرة القسـوة القديمة لدى المحلفين الوطنيين ، فقال أحدهم فى نزق : « هناك خدمات لا سبيل الى رفضها بين الزملاء » !!**

وصدر حكم الاعـدام بأغلبية صوت واحـد .. واستمع المتهم الى قضـائه بابتسامة هادئة . وعبرت نظراته ـ التى جال بها فى القاعة على غير هدى ـ عن احتقار صامت ، حين صادفت وجه « جاميلان » .. ولم يصفق للحكم أحد .

واذ أعيد « جاك موبيل » الى السجن المؤقت ، فى انتظار تنفيذ الحكم ـ الذى كان محددا له مساء اليوم ذاته ـ كتب على ضوء المشاغل رسالة ، جاء فيها :

« أختى العزيزة : أرسلتنى المحكمة الى المقصلة ، فمنحتنى بذلك الغبطة الوحيدة التى قدر لى أن استشعرها منذ موت معبودتى « نيبيف » .. لقد آخذونى بالشىء الوحيـد الذى بقى لى منهـا .. بزهرة من زهور الرمان ، أسموها ـ ولا أدرى لماذا ـ قرنفلة !

« لقد كنت أحب الفنون فى الأزمان الهانئة ، فجمعت ـ فى باريس ـ من اللوحات والصـور ، ما يوجـد الآن فى مكان أمين ، وما سيسلم اليك عنـدما يتيسر ذلك . فأرجو ـ يا أختى العزيزة ـ ان تحتفظى بها ذكرى لى » .

وقص خصلة من الشعر أودعها الرسـالة التى ألصق أطرافها ، وكتب عليها :

« الى المواطنـة كليمانس ديزيميرى (موبيل سابقـا) ـ بلاريول »

وأعطى السجان كل ماكان يحمل من نقود ، سائلا اياه ان

يبعث بالرسالة ، وطالبا زجاجة من النبيذ ، راح يرشفهـا على جرعات صغيرة ، فى انتظار مركبة الجلاد .

***

بعد العشاء ، هرع جاميلان الى « لامور بانتر » ، واندفع الى الغرفة الزرقاء التى كانت « ايلودى » تنتظره فيها كل مساء . وقال لها : « لقد تم ثارك ، ولم يعد لجاك موبيل وجود . لقد مرت المركبة - التى تحمله الى حتفه - تحت نوافذك ، تحف بها المشاعل » ..

اذ ذاك فهمت ، فهتفت : « أيها التعس !.. لقد قتلته !.. انه لم يكن عشيقى ، ولا عرفته قط .. بل لم أره البتة .. أى رجل كان هذا ؟.. كان شابا وادعا ، لطيفا .. بريئا . ولقد قتلته أنت ، أيها التعس ! التعس ! » . وسقطت مغشيا عليها . ولكنها فى ظلمات هذه الميتة الصغيرة - الاغماء - شعرت بنفسها فى طوفان من الذعر والنشوة ، فى آن واحد . وأفاقت بعد نصف الساعة ، فكشف جفناها المتثاقلان عن بياض عينيها .. وانتفخ صدرها ، وراحت يداها تتحسسان ، بحثا عن عشيقهـا . وضمته بين ذراعيهـا حتى أوشكت أن تخنقه ، وغرست أظافرها فى لحمه ، وأذاقته من شفتيهـا المتحرقتين قبلة ، كانت أطول القبـلات وأكثرها صمتا ، وسكونا .. وأحفلها بالألم واللذة !

كانت تحبه بكل بدنها . وكلما بدا لها رهيبا ، قاسيا ، جبارا .. وكلما رأته ملطخا بدماء ضحاياه ، ازدادت جوعا وظمأ اليه !

الفصل السابع عشر



• فى الساعة العاشرة من صباح الرابع والعشرين من « فريمير » (٧٨)، وتحت سماء صافية وردية أذابت ثلوج الليل ، ذهب المواطنان « جينو » و « دياورميل » — موفدين من لجنة الأمن العام — الى كنيسة البرنابيين ، واستدلا على مقر لجنة المراقبة للقطاع ، فى قاعة مجمع الرهبان .. حيث كان المواطن « بوفيزاج » يغذى المدفأة بالوقود . بيد أنهما لم يرياه — فى بادىء الأمر — لصغر حجمه وانكماش جسمه .

وبصوت مصدوع ، دعا المواطن بوفيزاج المندوبين الى الجلوس ، وتفرغ لخدمتهما . فسأله « جينو » عما اذا كان

(٧٨) فريمير : الشهر الثالث فى التقويم الثورى . من ٢٢ نوفمبر الى ٢٠ ديسمبر .

يعرف شخصا كان يحمل ـ فيما سبق ـ لقب « ديزيليت » ، ويقيم على مقربة من (بون نيف) . ثم أردف : « أننى موكل بالقبض على هذا الشخص » . وأبرز اليه الأمر الصادر من لجنة الأمن العام .

وراح بوفيزاج يبحث فى ذاكرته فترة ، ثم قال انه لم يكن يعرف شخصا يدعى « ديزيليت » ، وان الشخص المشتبه فى أمره ، قد لايكون من سكان قطاعه ، وان فى مشارف القطاع أجزاء من أحياء : المتحف (موزييم) ، والوحدة (اونيتيه) ، و (مارا .. ومارسيبى) .. وأن الشخص المقصود اذا كان يقيم فى القطاع ، فلابد انه يحمل اسما آخر غير ذلك الذى حمله أمر اللجنـة ، وانه لن يلبث أن يظهر ، على أية حال . فقال جينو : « لاينبغى أن نضيع الوقت !.. لقد وشى به الينا خطاب من أحد شركائه تسنى العثور عليه واحضـاره الى اللجنة منذ خمسة عشر يوما .. ولم يعلم الموطن « لاكروا » به الا بالأمس فقط . انناغرقون بالبلاغات التى تنهال علينا من كل جانب ، بدرجة لايدرى المرء معها بأيها يعنى ويهتم ! »

فقال بوفيزاج ، وهو منتفخ الاوداج : « ان البـلاغات تنهال ايضا على لجنةالمباحث فى القطاع .. بعضها من اناس يكشفون عما لديهم بدافع من الشعور القومى ، وبعضها من اناس يتطوعون بمعلوماتهم طمعا فى ورقة مالية من فئة مائة « سول » .. وكثير من الاولاد يشـــون بآبائهم طمعا فى الميراث ! » . واجاب جينو قائلا : « هذا الخطاب صادر عن نبيلة سابقة تدعى « روشمور » ـ وهى امرأة لطيفة ، كان القوم يمارسون الميسر فى دارها ـ ويحمل على غلافه اسم مواطن يدعى « رولين » ، وان كان ـ فى الواقع ـ موجها الى مهاجر فى خدمة « بيت » . وقد احضرته معى لأطلعك فيـه

على ما يخص ذلك المدعو « ديزيليت » . وأخرج الخطاب من جيبه ، قائلا :

— انه يبدأ ببيان مستفيض عن أعضاء المؤتمر الذين يمكن اكتسابهم — وفقا لأقوال هذه المرأة — بعرض مبلغ من المال ، أو بالوعد بمنصب رفيع فى حكومة جديدة أكثر استقرارا من هذه . ثم تأتى هذه الفقرة :

« **عدت لتوى من مسكن مسيو ديزيليت ، الذى يقيم فى مخزن تحت سطح بيت بالقرب من (بون نيف) ، لا يستطيع سوى قط أو شيطان أن يهتدى اليه . ولقد هبطت به الظروف الى ان يكسب عيشه من صنع الدمى و « الاراجوزات »** . وهو رجل حصيف الرأى ، وهذا ما يدعونى يا سيدى ، الى ان انقل اليك ما هو ضرورى من حديثه . فهو لا يعتقد ان الاحوال ستبقى طويلا ، ولا يتوقع ان تكون نهايتها فى انتصار الحلفاء ، ويبدو ان الحوادث تؤيده ، اذ ان انباء الحرب سيئة منذ مدة ، كما تعلم يا سيدى .. وانما يرى ان النهاية — فى الغالب — تتمثل فى ثورة صغار القوم ونساء الشعب ، الذين لا يزالون يتشبثون بعقيدتهم الدينية . وفى رأيه ان الذعر العام الذى تحدثه محكمة الثورة ، سيوحد فرنسا بأسرها ضد اليعاقبة . وقال متفكها : « هذه المحكمة التى تقضى على ملكة فرنسا وعلى موزعة خبز ، تشبه ذلك الوليم شكسبير الذى يمجده الانجليز كثيرا .. الخ » . وهو لا يرى من المستحيل ان يتزوج روبسبير ارملة الملك ، ويعين نفسه حاميا للمملكة .

« اكون شاكرة يا سيدى ، اذا مكنتنى من المبالغ المستحقة لى — وقدرها الف جنيه استرلينى — بالطريقة التى تعودت استخدامها . ولكن حذار كل الحذر ان تكتب الى مسيو « مورهارت » ، فهو وشيك ان يعتقل ، وان يزج به فى

السجن .. الخ . الخ » .

وقال بوفيزاج : « السيد ديزيليت يصنع الدمى .. هذه قرينة ثمينة .. وان كان فى القطاع كثير من الصناعات الصغيرة التى من هذا النوع » . فقال ديلورميل : « هذا يذكرنى بأننى وعدت ابنتى « ناتالى » — صغرى أولادى — بعروس تلعب بها ، فهى مريضة بالحمى القرمزية ، وقد ظهرت عليها الاعراض بالأمس . وليست هذه الحمى بالتى يخشى شرها ، ولكنها تتطلب عناية . ثم ان ناتالى تسبق سنها بكثير ، فهى ذات ذكاء وقاد ، وصحة سريعة التأثر » .

وقال جينو : « اما انا ، فلم انجب الا ولدا . وهو يلعب بأطواق البراميل على البلاط ، ويصنع بالونات بالنفخ فى الاكياس الورقية » . فقال بوفيزاج : « كثيرا ما يجد الاطفال متعة فى اشياء لم تخلق للعب ، تفوق ما يجدونه فى اللعب . ان ابن اخى « اميل » — وهو غلام فى السابعة من عمره ، موفور الذكاء — يتلهى طيلة يومه بمربعات صغيرة من الخشب ، يشغل بتنسيقها .. تفضلا ! »

ومد الى المندوبين علبة سعوطه مفتوحة ، فقال ديلورميل ، — وكان ذا شاربين طويلين — وهو يحملق : « **الآن يجب ان نمضى فى اثر طريدنا ، فأنا اشعر — فى هذا الصباح — بشهية متفتحة الى التهام امعاء ارستقراطى ، منفخة بزجاجة من النبيذ الابيض** » ! فاقترح « بوفيزاج » على المندوبين الذهاب الى زميله « ديبون » النجار ، فى حانوته بميدان ولى العهد ، فهو — ولابد — يعرف المدعو ديزيليت . فساروا فى الهواء العليل ، يتبعهم اربعة من جنود القطاع .

وسأل ديلورميل رفيقيه : « هل شهدتما تمثيلية المحاكمة الاخيرة للملوك . انها مسرحية جديرة بالمشاهدة ، اذ أظهر المؤلف جميع ملوك اوربا ، وقد لاذوا باحدى الجزر المهجورة ،

عند قاعدة بركان التهمهم .. انها قصـــة وطنية » . ولمح ديلورميل ـ عند ركن من شارع (هارليه) ـ عربة صغيرة ، تتألق كأنها معبد صغير ، تدفعها عجوز ارتدت فوق شعرها قبعة من القماش المشمع . فتساءل : « ما الذى تبيعه هذه العجـوز ؟ » . وتولت العجـوز الاجـابة قائلة : « تأملوا يا سادتى ، واختاروا ما يروق لكم . فعندى مســابح ، وصلبان ، وصـور للقديس انتـوان ، وقطع من أكفان القديسـين ، ومناديل من سـانت فيرونيك ، وتمائم ، وايقونات ، واقراط وخواتم تحمل صـور القديس هوبير ، وكافة مستلزمات العبادة » .

وصاح ديلورميل : « هذا مستودع ذخيرة المتعصبين ! » .. وشرع فى اجراء تحقيق ابتدائى مع البائعه ، التى راحت تجيب عن كافة الاسئلة بقولها : « اننى أبيع مســتلزمات العبادة منذ اربعين سنة ، يابنى ! » . واذ لمح أحد مندوبى لجنة الامن العام ، شخصا من ذوى الزى الازرق (الحرس الاهلى) مارا ، اومأ اليه كى يقود العجوز المذهـولة الى سجن النيابة . واشار المواطن « بوفيزاج » الى انه كان من واجب لجنة الرقابة ان تعتقل هذه البائعة وتقدمها الى محكمة القطاع ، وانه لم يعد فى الوسـع ـ فى تلك الايام ـ معرفة المسلك الذى يحسن اتخاذه نحو الدين القـديم ، اتباعا لآراء الحكومة ، وان الواجب ان يبـاح كل شىء ، أو يحرم كل شىء .

***

واذ اقترب المندوبان والموكل بلجنة المراقبة فى القطاع من حانوت النجار ، سمعوا صيحات مهتاجة مختلطة بصوت المنشار وحفيف المساحيج (الفارات) . كان الشجار قد دب

بين النجار المسن وجاره البواب « ريماكل » ، بسبب المواطنة « ريماكل » التى كانت تدفعها - باستمرار - الى جوف حانوت النجارة رغبة لا سبيل لمقاومتها ، ثم تعود الى مسكنها وقد غمرتها نشارة الخشب وذراته . واذ بلغ الغيظ بالبواب - الجريح الكرامة - مبلغه ، ركل «موتون» ، كلب النجار ، فى اللحظة التى كانت ابنته « جوزفين » الصغيرة ، تحتضن الكلب بحنان . واستنكرت جوزفين هذا ، فأنحت على ابيها بالسباب ، بينما صاح النجار بانفعال : « ايها التعس !.. اننى امنعك من ان تضرب كلبى » . فرد البواب ، وهو يرفع مكنسته : « وانا امنعك من ان .. » . ولم يتم عبارته ، فان مسحاج النجار الكبير مرق بجوار رأسه ، ومسه مسا خفيفا .

وما ان رأى المواطن بوفيزاج - يصحبه المندوبان - حتى هرع اليه قائلا : « انك شاهد - ايها المواطن القوميسير - على ان هذا النذل كاد يقتلنى ! » . وبسط المواطن بوفيزاج ذراعيه مهدئا ، وعلى رأسه القلنسوة الحمراء التى تنم عن وظائفه ، وخاطب البواب والنجار قائلا : « مائة سول لمن يرشدنا منكما الى مكان رجل مشتبه فى امره ، تبحث عنه لجنة الامن العام .. انه النبيل السابق ديزيليت ، صانع الدمى » . فأشار البواب والنجار معا الى مسكن «بروتو» ، وقد كفا عن النزاع فى سبيل المائة سول الموعودة .

وصعد ديلورميل وجينو وبوفيزاج - يتبعهم الجنود الاربعة ، والبواب ريماكل ، والنجار ديبون ، واثنا عشر صغيرا من ابناء الحى - الدرجات التى راحت تهتز تحت أقدامهم ، ثم تسلقوا السلم المتنقل .. وكان بروتو فى مسكنه يقص الدمى ، بينما كان الاب لونجمار يقف امامه ، منهمكا فى ربط اوصالها بالخيط ، وهو يبتسم اذ يرى حركاتها

المنسجمة المتناسقة تحت اصابعه !

وارتجفت اوصال رجل الدين ، لدى الاصوات التى ترددت على السلم .. لا لأنه كان أقل شجاعة من «بروتو» الذى لم تهتز له جارحة ، وانما لأن الحياء البشرى لم يعوده كيف يخفى ما به .. وادرك بروتو - من اسئلة المواطن ديلورميل - مبعث الضربة .. ولاحظ ، بعد فوات الاوان ، ان من الخطأ ان يثق المرء بالنساء . واذ طلب منه ان يتبع « القوميسير » ، أخذ معه ديوان « لوكريس » واقمصته الثلاثة . وقال مشيرا الى الاب لونجمار : « هذا المواطن مساعد اتخذته لصنع الدمى . وهو يقيم هنا » . ولكن رجل الدين عجز عن ان يبرز بطاقته المدنية ، فاعتقل مع بروتو .

وعندما مر الموكب امام مسكن البواب ، اتكأت المواطنة « ريماكل » على مكنستها ، وراحت تنظر الى الساكن نظرة الفضيلة اذ ترى الجريمة بين يدى القانون . وجذبت « جوزفين » الجميلة - فى استنكار - كلبها « موتون » من طوقه ، اذ أراد ان يتمسح فى صديقه الذى اعتاد ان يعطيه السكر . وغص ميدان (تيونفيل) بحشد من الفضوليين . **والتقى بروتو - عند آخر درجات السلم - بفتاة فلاحة كانت على وشك ارتقاء السلم . وكانت تحمل فى ذراعها سلة مليئة بالبيض ، وقد امسكت فى يدها فطيرة ملتفة فى قطعة قماش .. تلك كانت « اثينائيس » ، وقد جاءت من (باليسو) لتقدم الى منقذها شاهدا على عرفانها بفضله .**

فما ان لمحت المندوبين والجنود الاربعة يحيطون بـ « مسيو

موريس » ، حتى ذهلت وتساءلت عما اذا كان الامر حقيقة . واقتربت من «القوميسير» وقالت له فى لطف : « ما أحسبكم ستأخذوه !.. ليس هذا بممكنا .. انكم لا تعرفونه ! انه فى طيبة الله ذاته ! »

فدفعها المواطن ديلورميل ، وأومأ الى الجنود بالمضى . واذذاك تقيأت « اثينائيس » اقذر السباب . وأفحش الشتائم ، على المندوبين والجنود ، الذين خيل اليهم ان كافة أقذار (باليه رويال) وشارع (فرومنتو) قد صبت على رؤوسهم . ثم صاحت بصوت ملأ ميدان (تيونفيل) بأسره ، واثار رعدة فى حشد الفضوليين : « ليحى الملك ! ليحى الملك ! »

الفصل الثامن عشر



• كانت المواطنة « جاميلان » تحب الشيخ « بروتو » وتراه - بوجه عام - أطيب الرجال الذين اتصلت بهم ، واجدرهم بالاعتبار . ولم تودعه حين اعتقلوه ؛ فقد خشيت ان تستعدى السلطات ، وكانت - فى ظروفها المتواضعة - ترى الجبن واجبا . ولكنها تلقت - باعتقاله - ضربة لم تفق من آثارها . فأصبحت تعاف الأكل وتشكو من انها فقدت شهوتها اليه ، فى اللحظة التى اصبحت تجد فيها الكفاية منه . ولقد ظلت معجبة بابنها ، بيد انها لم تعد تجسر على التفكير فى الواجبات المضنية التى كان يضطلع بها ، وتغبط نفسها على انها كانت مجرد امرأة جاهلة ، لا تملك ان تحكم على اعماله .

وعثرت الأم المسكينة على مسبحة فى قاع صندوق ، ولم تكن تعرف كيف تستعملها ، الا انها راحت تعبث بحباتها بأصابع مرتجفة . وصارت متدينة ، بعد ان عاشت حتى شيخوختها دون ان تؤدى فرائض دينها . فأخذت تصلى لله – بجوار المدفأة – سحابة نهارها ، من اجل طمأنينةابنها وسلامة ذلكالسيد الطيببروتو . وكثيرا ما كانت «ايلودى» تأتى لزيارتها ، فلم تكونا تجسران على تبادل النظرات ، وانما كانت كلمنهما تتحدث – من آن الى آخر – عنامور ليست ذات بال .

وفى يوم من أيام شهر « بلوفيوز » (٧٩)، والثلج يتساقط كسفا ثقيلة تحجب السماء وتخمد كافة ضوضاء المدينة ، سمعت المواطنة « جاميلان » – وقد كانت وحيدة فى المسكن – طرقات على الباب . وارتجفت ، فان اتفه حركة أصبحت – منذ شهور – تبعث رعدة فى كيانها . وفتحت الباب ، فاذا شاب فى الثامنة عشرة من عمره ، او العشرين، يدخل وقبعته فوق رأسه . وكانفى سترة خضراء زيتونية ، تغطى دفتاها الصدر والخصر ، وقدارتدى حذاءين علىالنسق الانجليزى ، وانسدل شعره الكستنائى مجعدا على منكبيه ، وتقدم الى وسط المرسم ، وكأنما كان يريد ان يتعرض لكل ما كان ينساب خلال زجاج النافذة من ضوء متسلل خلال الثلوج . ومكث لحظات ساكنا ، ساكتا . **وأخيرا ، قال اذ ظلت المواطنة جاميلان ترقبه متوجسة : « الا تعرفين ابنتك ؟ » .. فضمت العجوز يديها ، وهتفت : « جولى !.. اهذه انت ؟.. أهذا ممكن يا الهى ؟ »**

– ولم لا ؟.. هذه انا !.. قبلينى يا اماه !

---

(٧٩) بلوفيوز : الشهر الخامس فى التقويم الثورى . من ٢٠ أو ٢١ أو ٢٢ يناير الى ١٩ أو ٢٠ أو ٢١ فبراير .

فضمت المواطنة ارملة جاميلان ابنتها ، وذرفت دمعة على ياقة سترتها ، ثم هتفت فى لهجة نمت عن قلق : « هل جئت الى باريس ؟ »

— آه !.. ليتنى جئت وحدى يا اماه .. فان احدا ان يعرفنى فى هذا اللباس .

والواقع ان زيها كان يخفى حقيقتها ، فلم تكن تختلف — فى مظهرها — عن كثير من الفتيان ، الذين كانوا يرسلون شعورهم مثلها ، ويفرقونها فى قمة الرأس الى الجانبين . وكانت قسمات وجهها دقيقة وفاتنة ، ولكن الشمس كانت قد لفحتها ، والاجهاد اثقلها ، والهموم اضنتها ، فطغت عليها مسحة من الفتوة والرجولة . وكانت نحيلة القوام ، ذات ساقين طويلتين ومستقيمتين ، وحركات طليقة .. فلم يكن ثمة ما يحتمل ان يشى بجنسها سوى صوتها .

وسألتها أمها عما اذا كانت جائعة ، فأجابت مرحبة بالأكل ، حتى اذا قدم اليها خبز ونبيذ ولحم ، أقبلت على الأكل ، معتمدة بمرفقها الى المائدة .. حسناء ، شرهة ، مثل « سيريس » فى كوخ العجوز « بوبو » (٨٠) . وما لبثت ان قالت ، والقدح على شفتيها : « اتعرفين متى يعود أخى يا اماه ؟.. اننى اود ان اتحدث اليه » . فتطلعت الام الطيبة الى ابنتها فى حرج ، ولم تجب .

— لابد لى من ان اراه . لقد اعتقل زوجى صباح اليوم ، واقتيد الى سجن (لوكسمبورج) !

ولقد خلعت لقب « الزوج » على « فورتونيه دى شاسانى » ، النبيل السابق ، الذى كان ضابطا فى لواء (بوييه) . وكان قد أحبها عندما كانت تعمل فى متجر للازياء بشارع (ديه لومبارد) ، فاختطفها من اهلها ، وحملها الى

(٨٠) التشبيه مأخوذ عن احدى الاساطير .

انجلترا ، حيث هاجر فى اعقاب حوادث ١٠ أغسطس . وكان عشيقها ، ولكنها وجدت من الاليق — أمام امها — ان تدعوه زوجها ، قائلة لنفسها ان المحن قد ربطت بينهما بأكثر من روابط الزواج ، وان الشقاء كان ميثاقا متينا . فكم من مرة قضيا الليل على مقعد طويل فى متنزهات لندن ، وجمعا الفتات من على موائد الحانات فى (بيكاديلى) .

ولم تحر أمها جوابا ، بل راحت ترمقها بعين حزينة .

— ألست تسمعيننى يا أماه ؟.. ان الوقت ضيق ، ولابد من ان ارى « ايفاريست » فورا ، فهو الوحيد الذى يستطيع انقاذ « فورتونيه » .

فأجابت الام : « يحسن ان لا تتحدثى الى اخيك يا جولى » . فتساءلت : « كيف ؟.. ماذا تقولين يا أماه ؟ »

— اقول : يحسن بك ان لا تتحدثى الى اخيك عن السيد دى شاسانى .

— بل لابد من هذا .. وبسرعة !

— ان ايفاريست يا طفلتى ، لا يغفر أبدا للسيد دى شاسانى انه اختطفك . وانك لتعلمين باى غضب يتحدث عنه ، وأية اسماء ينعته بها !

فقالت جولى ، وهى تطلق ضحكة قصيرة خافتة ، وتهز كتفيها : « اجل .. كان يسميه فاسقا ! » . فأردفت الام : « لقد اصيبت كرامته بجرح لا يندمل ، يا صغيرتى . لقد آلى ايفاريست على نفسه ان لا يتحدث عن السيد دى شاسانى . وها قد انقضى عامان لم يلفظ فيهما كلمة واحدة عنه أو عنك . بيد أن مشاعره لم تتحول ، كما تعلمين . فهو لا يصفح عنك قط » .

— ولكن يا أماه .. ما دام فورتونيه قد تزوجنى .. فى لندن .

فرفعت الام عينيها وذراعيها ، وقالت : ((يكفى أن يكون فورتونيه من الطبقة الارستقراطية ، ومن المهاجرين ، لكى يعتبره ايفاريست عدوا)) .

ــ أجيبينى يا أماه .. هل تظنين انه لا يقبل ، اذا أنا سألته ان يقوم بالمساعى اللازمة لدى المدعى العام ولجنة الامن العام ، لانقاذ فورتونيه ؟.. انه يكون طاغية ظالما ، اذا رفض !

ــ ان أخاك يا بنيتى رجل أمين ، وابن بار . ولكن لاتسأليه .. أواه ، لا تطالبيه بأن يهتم بالسيد شاسانى .. استمعى لنصحى يا جولى !.. انه لا يفضى الى بأفكاره ، وما كنت بالقادرة على فهمها ، بلا شك .. ولكنه قاض ، وله مبادىء ، ويعمل بايحاء ضميره . فلا تطلبى منه شيئا . يا جولى .

ــ أرى انك الآن تعرفينه . تعرفين انه بارد ، عديم الاحساس .. انه شرير ، وانه لم يؤت سوى الطموح والغرور .. وكنت دائما تفضلينه على . فكنت تحثيننى على ان أتخذه مثالا ، عندما كنا نقيم ثلاثتنا معا . لقد استولى عليك بمسلكه الرزين وقوله الرصين ، فاعتقدت أن ترى فيه كل الفضائل . أما أنا ، فكنت دائما غير راضية عنى ، تعزين الى كل الرذائل ، لاننى كنت منطلقة ، وكنت أتسلق الاشجار . أبدا لم تكونى تحتمليننى ، ولم تكونى تحبين سواه . الا اسمعى ! اننى أكره ايفاريستك .. هذا المنافق !

ــ حسبك يا جولى ! .. لقد كنت أما رؤوما لك ، كما أنا له . ولقد جعلتك تتعلمين مهنة ، وليس ذنبى انك لم تظلى فتاة شريفة ، وانك لم تتزوجى من وسطك . لقد أحببتك بحنان ، ولا أزال أحبك . اننى أصفح عنك وأحبك . ولكن ، لا تذكرى ايفاريست بسوء ، فهو ابن صالح ، وقد عنى بى دائما . ما الذى كان يحيق بى بدونه ، عندما هجرتنى

يا بنيتى .. عندما هجرت مهنتك ، ومتجرك ، لكى تعيشى مع السيد دى شاسانى !.. كنت خليقة بأن أموت بؤسا وجوعا.

— لا تقولى هذا يا أماه ، فأنت تعرفين تماما اننا كنا على أستعداد لان نحوطك برعايتنا — أنا وفورتونيه — لو لم تنقلبى علينا ، بتحريض ايفاريست . لا تثيرينى !.. انه يعجز عن أى عمل طيب . وما تكلف العناية بك ، الا ليبغضك فى . أهو يحبك ؟.. بل اهو قادر على ان يحب احدا ؟.. انه لم يؤت قلبا ، ولا عقلا .. ليست له موهبة واحدة . لا بد له من سجية أرق من سجيته ، كى يكون رساما !

***

ومرت نظراتها باللوحات الموجودة فى المرسم ، فألفتها كما تركتها . وعادت تقول : « هاك روحه ، قد سكبها على اللوحات .. باردة ، معتمة . تأملى أوريست .. «أوريسته» بعينيه البليدتين ، وفمه البشع ، يبدو كأنه على « خازوق » .. انه يشبهه تماما . اذن ، فأنت لا تفهمين شيئا يا أماه ، بعد كل هذا ؟.. **ليس بوسعى أن اترك « فورتونيه » فى السجن . انك تعرفينهم ، من يعاقبة ووطنيين .. كلهم على شاكلة ايفاريست . لسوف يقتلونه . لست أريدهم أن يقتلوه ويحرمونى منه يا أماه .. يا أمى العزيزة ، يا أمى الحبيبة !.. اننى أحبه ! أحبه !..** لكم كان طيبا معى ، وما كان أشد ما لقيناه معا من سوء حظ !.. ألا انظرى هذا الزى ، انها احدى حلله . لم يعد لدى قميص . ولقد أعارنى صديق لفورتونيه صديرية .. وعملت ساقية لدى بائع لشراب الليمون ، بينما اشتغل هو لدى حلاق . وكنا نعرف أن فى العودة الى فرنسا تعريضا لحياتنا ، ولكنا سؤلنا عما اذا كنا راغبين فى الحضور الى باريس ، للقيام بأمر هام ..

ووافقنا ، فقد كنا على استعداد لأن نذهب الى الشيطان ذاته . ودفعت لنا نفقات السفر ، وأعطينا خطاب اعتماد الى مصرفى فى باريس . ولكنا وجدنا مصرفه مغلقا ، وهو فى السجن ، يوشك أن يساق الى المقصلة . ولم يكن معنا درهم واحد . ووجدنا جميع الذين أبيح لنا الاتصال بهم اما قد لاذوا بالفرار ، أو غيبوا فى السجون . ولم يكن هناك باب واحد نطرقه .. وكنا ننام فى حظيرة للخيل ، بشارع (لافام سان تيت) . وكان يقاسمنا التبن ماسح أحذية كريم ، أعار حبيبى أحد صناديقه ، وفرجونا ، وعلبة طلاء خلا ثلاثة أرباعها . وظل فورتونيه يكسب عيشى وعيشه — خمسة عشر يوما — بتنظيف الاحذية فى ميدان (جريف) . ثم حدث — يوم الاثنين — ان وضع أحد أعضاء الجمعية العامة قدمه على الصندوق ، وطلب اليه ان ينظف حذاءه . وكان قصابا — فيما مضى — ركله فورتونيه يوما فى عجزه لأنه باعه لحما انقص وزنه . فلما رفع فورتونيه رأسه ليطلب اجره ، عرفه الوغد ، فوصفه بأنه ارستقراطى ، وهدده بالاعتقال . وتجمع الناس ، وكانوا يتألفون من بعض السذج ، وبعض الفاجرين الذين راحوا يتصايحون : « الموت للمهاجر ! » ، واستدعوا الشرطة . وفى تلك اللحظة ، كنت أحمل الحساء لفورتونيه ، فرأيته يساق الى القطاع ، ويحبس فى كنيسة « سان جان » . وأردت أن أقبله فردونى عنه . وقضيت الليلة فى درب بجوار الكنيسة كالكلبة .. وفى هذا الصباح ، ساقوه .. »

ولم تتم عبارتها ، اذ خنقتها العبرات . فرمت بقبعتها على الأرض ، وركعت عند قدمى أمها ، وهى تقول : « ساقوه — هذا الصباح — الى سجن اللوكسمبورج ، يا أماه !.. ساعدينى يا أمى على انقاذه ، واشفقى على ابنتك ! » .. وفكت أزرار سترتها — وهى مغرقة فى دمعها — لتظهر أمها

على حبها فى أجلى صورة ، وكشفت عن صدرها ، وتناولت يدى أمها ، فضغطتهما الى ثدييهـــا النافرين . فشهقت الارملة جاميـــلان ، قائلة : « يا ابنتى العزيزة !.. جولى ، يا بنيتى جولى ! » . وألصقت وجهها المندى بالدموع ، بوجه ابنتها الشابة . ولزمتا الصمت برهة.. وراحت الام البائسة تنقب فى ذهنها عن وسيلة لمساعدة ابنتها ، بينما كانت جولى تتـــأمل النظرة المنبعثـــة من هاتين العينين المغرورقتين بالدموع .

ومضت أم ايفاريست تفكر : « **ربما .. لعلى اذا حدثته ، حملته على أن يفكر . انه طيب ، وحنـــون . وما لم تكن السياسة قد قست فؤاده ، وما لم يكن قد انصاع لنفـوذ اليعاقبة ، فلن تكون لديه هذه المبادىء العنيفة التى تروعنى ، لأننى لا أفهمهـــا !** » . واحتوت رأس جولى بين راحتيها ، وقالت :

ــ اسمعى يابنيتى .. سأكلم ايفاريست . سـأعده لكى يراك ويستمع اليك .. وانا أعرف ان زيك هذا سيذهله ، فهو متزمت فى كل ما يمس الاخلاق والحشمة . انـــا نفسى أصبت ببعض الدهشـة ، اذ رأيت ابنتى جولى فى ثوب فتى !

ــ اواه يا أمى !.. ان المهاجرة والقلاقل المرعبة فى المملكة قد جعلت هذا التنكر شائعا . فالناس يلجأون اليه لممارسة مهنة ، او ليتفادوا ان يعرفهم أحد ، او لتطابق مظاهـرهم جواز سفر مزور ، او شهادة ملفقة . لقد رأيت « جيرى » الشاب ــ فى لندن ــ فى ثياب فتاة ، ولكم كان له مظهـــر شابة باهرة الجمال .. وانك لتقرين يا اماه ، بأن تنكره هذا يفوق تنكرى استهجانا .

ــ ليست بك حاجة يا صغيرتى المسكينة ، الى ان تبررى

امامى هذا الامر ، ولا سواه . فأنا أمك ، ولقد كنت لدى بريئة دائما . سأتحدث الى ايفاريست . سأقول له ..

واسكت ، فقد كانت تشعر بحقيقة ابنها . كانت تشعر بها ، ولكنها لم تشأ ان تصدق شعورها ، ولا ان تعترف به . فقالت : « انه طيب . لسوف يفعل من اجلى .. من اجلك ، كل ما أطلبه منه ! » .. ولاذت المرأتان بالصمت ، وقد اضناهما الاعياء . وأغفت جولى ورأسها على الركبتين اللتين طالما توسدهما فى الطفولة ، بينما كانت الام تبكى فى لوعة — ومسبحتها فى يدها — خشية الهموم التى كانت تحس بها مقبلة فى صمت .. فى ذلك اليوم الساكن ، الملتف بالثلوج ، والذى همدت فيه أصوات الخطى ، والعجلات ، والسماء !

***

وفجأة ، وبارهاف سمع شحذه القلق ، التقطت اذنا الام خطوات ابنها على درجات السلم ، فصاحت : « ايفاريست !.. اختبئى ! » . ودفعت ابنتها الى غرفتها .

وقال ايفاريست : « كيف انت اليوم ، يا امى الطيبة ؟ » . وعلق قبعته الى المشجب ، واستبدل بحلته الزرقاء قميص العمل ، وجلس الى حامل اللوحات . كان منذ ايام يرسم بالفحم لوحة لربة « النصر » وهى تضع اكليلا على جبين جندى استشهد من أجل الوطن . وكان قد اقبل على هذا الموضوع متحمسا ، ولكن محكمة الثورة استنفدت سحابات النهار من أيامه ، واستولت على كل كيانه ، فأصبحت يده — المدربة على الرسم — ثقيلة متراخية .. وراح يغمغم مغنيا بنشيد : « ليكن ! » . فقالت المواطنة جاميلان : « اتغنى يابنى ؟.. لابد ان قلبك مبتهج ! »

– جدير بنا ان نبتهج يا اماه ، فهناك اخبار طيبة . لقد انكسرت (فانديه) ، وهزم النمسويون ، واجتاح جيش الرين خطوط لوتيرن وويسيمبورج . **لقد اقترب اليوم الذى تبدى فيه الجمهورية المظفرة رحمتها . فلماذا تزداد جراة المتآمرين بازدياد قوة الجمهورية ، ويبيت الخونة ليضربوا الوطن فى الظلام وهو يمحق الاعداء الذين يهاجمونه جهارا ؟!**

وكانت المواطنة جاميلان ترمق ابنها من فوق عوينتى منظارها ، وهى ترتق جوربا ، وقالت : « لقد أتى برزيليوس – نموذجك القديم – يطالب بعشرة ليبرات عليك له . ولقد اصيبت جوزفين الصغيرة بمغص لاسرافها فى اكل المربى التى اعطاها اياها النجار ، وقد اعطيتها شرابا شافيا .. وجاء « ديماهى » ليقابلك ، وقد أسف لأنه لم يجدك . فهو يرغب فى ان يحفر شيئا من رسمك ، ويراك نابغة . لقد تأمل هذا الفتى النبيل صورك واعجب بها » . فقال الرسام : « عندما يستتب السلام ، وتخمد المؤامرة ، سأعود الى « اوريست » .. اننى لم اعتد ان اداهن نفسى ، ولكن الرأس الذى رسمته جدير بأن يكون من ريشة دافيد » .

ورسم خطا بديعا لذراع ربة النصر ، وهو يقول : « انها تمسك سعف النخل ، والأجمل من هذا ان تكون الذراع ذاتها من السعف ! » . وما لبثت امه ان هتفت : « ايفاريست ! » ، فأجابها : « نعم يا أماه ؟ »

– **تلقيت انباء .. احدس ، ممن هى ..**

– لست ادرى .

– **من جولى .. اختك . انها ليست سعيدة .**

– لتكونن فضيحة ان هى سعدت .

– لا تتكلم هكذا ، يابنى . انها اختك . ان جولى ليست

سيئة ، بل ان لها مشاعر طيبة ، غذاها الشقاء . انها تحبك . وبوسعى ان أؤكد لك يا ايفاريست انها تصبو الى حياة العمل والاستقامة ، ولا تفكر الا فى الاتصال بأهلها . ولا شىء يمنع من أن تراها .. لقد تزوجت من فورتونيه شاسانى .

- هل كتبت اليك ؟

- كلا .

- فكيف تسنت لك انباؤها يا امى ؟

- لم تأت فى رسالة يابنى ، وانما ..

ونهض ، فقطع عليها القول ، بصوت رهيب : « صه **يا اماه !.. لا تقولى انهما عادا معا الى فرنسا .. اذا لم يكن من موتهما بد ، فلا أقل من ان يكون هذا بيد سواى . من اجلهما ، ومن اجلك ، ومن اجل نفسى اتركينى جاهلا بأنهما فى باريس .. لا تضطرينى الى ان اعلم ، والا ..! »**

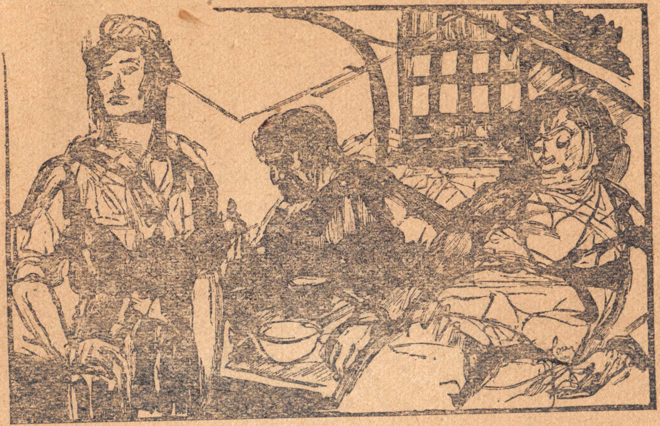
- ماذا تبغى ان تقول يا بنى ؟.. اتريد .. اتجرؤ ..؟

- اصغى الى يا اماه . لو عرفت ان اختى جولى فى هذه الحجرة .. (وأشار بأصبعه الى باب مخدعها) **لوشيت بها لفورى لدى لجنة المراقبة فى القطاع !**

وشحب وجه الام المسكينة ، وافلتت يداها المرتجفتان ما كانت ترتق ، وهتفت بصوت أوهن من أخفت همسة : « لا اريد ان اصدق هذا ، ولكنى اراه بجلاء .. انه وحش ! »

وفر ايفاريست من المسكن ووجهه يضارع وجهها شحوبا . وقد تجمع الزبد على شفتيه ، فانطلق مهرعا ينشد ايلودى ، والنسيان ، والنوم .. الباكورة الشهية للفناء !

الفصل التاسع عشر



• **بينما** كان التحقيق يجرى مع الآب بوجمار والفتاة آثينائيس فى القطاع ، سيق بروتو - بين اثنين من الشرطة - الى (اللوكسمبورج) ، حيث أبى البواب ان يتسلمه ، متعللا بأن لا مكان لديه . فنقل الكهل المنصاع - بعد ذلك - الى سجن (الكونسيرجى) ، واقتيد الى حجرة كاتب السجن ، وكانت صغيرة شطرت بحاجز زجاجى . وبينما كان المسجل يثبت اسمه فى السجلات ، لمح « بروتو » خلال الزجاج رجلين فى سكون الموت ، وقد رقد كل منهما على حشية مزرية ، وجمدت عيناه فكأنه لا يبصر شيئا .. وتناثرت على الارض حولهما صحاف وزجاجات وبقايا خبز ولحم . **كانا ممن قضى عليهما بالموت ، وقد أعدا فى انتظار المركبة التى تقلهما الى المقصلة !**

واقتيد سيد «ليزيليت» السابق الى غرفة ضيقة معتمة ، تبين فيها - على ضوء مصباح - شخصين مستلقيين ، احدهما فظ ، مشوه السحنة ، قميء .. والآخر كريم ، لطيف . وقدم له هذان السجينان بعضا من القش القذر ، المليء بالحشرات ، لكي لا ينام على الارض التي كانت متسخة بافرازات المعدة وفضلاتها . وارتمى « بروتو » على مقعد في الظلام المنتن ، واسند رأسه الى الحائط ، وظل صامتا ، لا يحير حراكا . كان ألمه من القسوة بحيث انه كان قمينا بأن يضرب برأسه الحائط فيشجه ، لو انه اوتى المقدرة .. ولكنه لم يكن يملك ، حتى ان يتنفس . وغامت عيناه ، وملأ اذنيه صخب طويل ؛ هادىء ، كأنه السكون نفسه . وشعر بنفسه يغيب في اغماءة عذبة . ولثانية واحدة - لا مثيل لها - بدا له كل شيء في انسجام ، وصفاء علوى ، وعطر ، ولطف . ثم غاب عن الوجود تماما .

وعندما افاق ، كانت اول فكرة اعترضت ذهنه ، هي الأسف على اغماءته .. **واذ ظل فيلسوفا ، حتى في غمرة القنوط ، فقد فكر في انه لم يكن ثمة بد من ان يهبط الى قاع حفرة في انتظار المقصلة ، حتى يدرك أبدع لذة معربدة تذوقتها احاسيسه يوما !..** وحاول ان يفقد الشعور مرة اخرى ، ولكن دون أن يفلح .. بل انه - على النقيض - بدأ يشعر شيئا فشيئا بهواء « الزنزانة » الموبوء يسرى الى رئتيه ، مع حرارة الحياة ، ومع ادراك محنته التي لا تحتمل !

وفي تلك الاثناء ، كان زميلاه يشعران بأن صمته اهانة لا تغتفر . وحاول « بروتو » - الذي كان حلو المعشر - ان يرضى فضولهما ، **ولكنهما لم يكادا يعلمان انه كان ممن يسمون ((سياسيين)) ، وانه كان ممن ينحصر جرمهم في**

القول او الفكر ، حتى امسكا عنه الاحترام والعطف . كانت الاعمال المعزوة الى هذين السجينين أشد ، فكان اكبرهما سنا قاتلا ، والآخر مزيفا للاوراق النقدية . ولقد راضا نفسيهما على حالهما ، بل اصبحا يجدان فيها بعض الرضى . وشرع بروتو يفكر - فجأة - فى ان فوق رأسه كان ثمة عالم زاخر بالحركة ، والضجيج ، والضوء ، والحياة .. وان تاجرات سوق « الباليه » المليحات كن يبتسمن خلف نوافذ متاجر العطور والخردوات ، للمارة السعداء ، الاحرار ، فضاعفت هذه الفكرة من أساه .

وأقبل الليل ، غير ملحوظ فى ظلام « الزنزانة » وسكونها ، ولكنه - مع ذلك - كان ثقيلا ، مفجعا . وأغفى بروتو ، وقد مد احدى ساقيه على المقعد الخشبى الطويل ، واسند ظهره الى الجدار . وما لبث ان تمثل نفسه جالسا تحت شجرة زان وارفة ، تصدح فيها الطيور ، والشمس الجانحة للمغيب تكسو النهر بلهب سائل ، وتصبغ السحب بالارجوان . واكتهل الليل ، فتملكته حمى عنيفة ، فراح يشرب بنهم - حتى افرغ جرته - ماء ضاعف من غثيانه .

وفى اليوم التالى ، وعد السجان - الذى احضر الحساء - بروتو بأن ينقله الى « البيستول » - حيث يقيم المسجونون الذين يدفعون من اجل راحتهم - بمجرد ان يخلو مكان ، وهو أمر ما كان انتظاره ليطول . وفعلا ، دعاه - فى اليوم بعد التالى - الى الخروج من « زنزانته » . وشعر «بروتو» بأن كل خطوة فى صعوده كانت تبث فيه القوة والحياة .. وعندما رأى - على البلاط الاحمر فى احدى الغرف - سريرا من الخيش ، مغطى بغطاء زرى من الصوف ، بكى فرحا . ولم يلح له السرير المذهب ، الموشى ، الذى اعده - فى الماضي - لأجمل راقصة فى الاوبرا ، أحب ولا اشهى من

هذا السرير !

ولقد كان هذا السرير المكسو بالخيش ، يقوم فى قاعة كبيرة ، نظيفة الى حد لا بأس به ، ضمت سبعة عشر سريرا آخر ، تفصل بين الواحد والآخر حواجز خشبية عالية . وكان الفريق الذى يقيم فيها ، يتألف من نبلاء سابقين ، وتجار ، ومصرفيين ، وصناع . جماعة لم تكن صحبتها لتسوء ملتزم الضرائب الشيخ ، الذى راض نفسه على معاشرة كل انواع الناس . وقد لاحظ ان الرجال المحرومين مثله من كافة أسباب السرور ، والمعرضين للهلاك على يدى الجلادين ، كانوا يبدون مرحا ، وميلا مفرطا الى الفكاهة . واذ لم ير فيهم ما يدعو الى الاعجاب ، فانه عزا طرب رفاقه الى خفة عقولهم التى كانت تحول بينهم وبين ان يتبينوا موقفهم حق التبين . وازداد اطمئنانا الى هذا الرأى ، حين لاحظ ان اكثرهم ذكاء كانوا أعمقهم أسى . **وما لبث ان فطن الى ان اكثرهم كانوا يستمدون من «الكونياك» والنبيذ مرحا يتصف — فى أصله — بالعنف ، واحيانا بشىء من الجنون . وما كانت لديهم جميعا اية شجاعة ، ولكنهم جميعا كانوا يتظاهرون بها** . ولم يدهش « بروتو » ، فقد كان يعلم ان الرجال درجوا على ان يعترفوا بالقسوة والغضب ، بل والبخل ، طواعية .. ولكنهم ابدا ما كانوا يعترفون بالجبن ، لأن هذا الاعتراف كان يضعهم — بين الهمج وفى المجتمع المهذب على السواء — فى خطر مميت . وحدث نفسه بأن هذا كان السبب فى ان جميع الشعوب كانت شعوب ابطال ، وان جميع الجيوش كانت تتألف من بواسل .

وكانت ضوضاء الاسلحة والمفاتيح ، وصريف الاقفال ، ونداء الحراس ، ووقع اقدام المواطنين عند باب المحكمة ، أقوى من النبيذ والكونياك . فكانت تسكر المسجونين ،

وتوحى اليهم بالأسى ، أو الهذيان ، أو الهياج . حتى ان منهم من عمدوا الى قطع رقابهم بشفرة الحلاقة ، او قذفوا بأنفسهم من النوافذ .

***

وكانت قد انقضت على «بروتو» ثلاثة ايام فى «البيستول» ، حين علم من السجان أن الأب لونجمار كان ملقى على القش الموبوء ، فى السجن المليء بالحشرات ، بين اللصوص والقتلة . فعمل على نقله الى « البيستول » ، فى عين الحجرة التى كان ينزل فيها ، حيث خلا أحد السراير . ولما كان ملتزم الضرائب الشيخ قد وعد بأن يدفع عن رجل الدين نفقاته ، ولم يكن يحمل كنزا كبيرا يمكنه من ذلك ، فقد عمد الى رسم الصور ، مقابل « أيكو » واحد لكل صورة . وحصل — عن طريق أحد السجانين — على اطارات سوداء صغيرة ، يضع فيها صورا دقيقة يصوغها من الشعر فى براعة وافرة . وكانت هذه التحف تجد اقبالا كبيرا بين جماعة من الناس لم يكن يشغلهم سوى ان يخلفوا تذكارات وراءهم .

وظل الأب لونجمار يحتفظ بقلبه وروحه فى أعلى مستوى . وراح — فى انتظار مثوله امام محكمة الثورة — يعد دفاعه . ولم يكن يفرق بين قضيته وقضية الكنيسة ، فآلى على نفسه ان يبين لقضاته ألوان الفوضى والفضائح التى نشأت عن اقتران تعاليم الكنيسة بالدستور المدنى .. وان يصور لهم كيف ان الابنة الكبرى للكنيسة (فرنسا) قد شنت على البابا حربا آثمة ، وكيف ان الاكليروس الفرنسى قد تجرد من عظمته ، وغلب على أمره ، وانصاع أزرى الانصياع للعامة والعلمانيين .. وكيف ان الرهبان — وهم المليشيا المخلصة للمسيح — قد شردوا وتفرقوا .. واورد ذكر القديس جريجوار العظيم والقديس ايرينيه ، ونصوصا

عديدة من القانون الكنسى ، وفقرات برمتها من المراسيم .
وكان يجثو ـ النهار طوله ـ على ركبتيه ، بجوار سريره ، وهو يغمس ذؤابات اقلام بليت حتى منبت الريش (٨١) فى المداد ، والسناج ، وبقايا القهوه ، ويسود ـ بخط غير مقروء ـ أوراق الشمع ، واوراق اللف ، والصحف ، واغلفة الكتب ، والرسائل القديمة ، وقوائم الحسابات العتيقة ، واوراق اللعب .. بل لقد فكر فى ان يستخدم قميصه بعد ان ينقعه فى النشاء . واخذ يضع ورقة فوق ورقة ، ويشير الى الكومة غير المتناسقة ، قائلا : « عندما امثل امام قضاتى ، ساغرقهم بالنور ! »
وفى ذت يوم ، صاح قائلا لنفسه وهو يلقى نظرة راضية على دفاعه ـ الذى لم يكن يكف عن التضخم ـ ويفكر فى قضاته الذين كان يتحرق شوقا الى افحامهم : « ما كنت لأود ان اكون فى مكانهم ! »
وكان المسجونون الذين جمع القدر بينهم فى هذه الحجرة خليطا من الملكيين والاتحاديين ، بل كان بينهم يعقوبى كذلك .. وكانوا يختلفون فيما بينهم فى سياسة شؤون الدولة ، ولكن احدا منهم لم يكن يرعى اتفه بقيـــة من المعتقدات المسيحية . فكان انصـــار الميثاق ، والدســـتوريون ، والجيروندين يرون ـ على شـــاكلة بروتو ـ ان الله بالغ الاساءة اليهم بالذات ، ولكنه بار بالناس . وكان اليعاقبة يقيمون فى مكان الرب الها يعقوبيا ، لكى تبدو تعاليمهم هابطة على الدنيا من سمو شاهق . ولكنهم فى عجـــزهم عن ان يتصوروا ان الناس من تفاهة العقل بحيث يؤمنـــون بأى دين منزل ، ايقنوا بأن الأب لونجمار كان محتالا ماكرا ، اذ

---

(٨١) كانت الاقلام ريشا من اجنحة الاوز ، تبرى اطرافها المجردة من الزغب .

رأوه يصر على الايمان مع انه لم يكن يفتقد العقـــل !.. ومع انه كان يتأهب ــ دون ما شك ــ للاستشهاد ، وكان يبوح بايمانه فى كل مناسبة ، الا انه كان كلما ألح فى اظهار اخلاصه ، ازداد ظهورا فى أعينهم بمظهر الدجال !

وعبثا حاول « بروتو » ان يؤكد صدق ايمان رجل الدين ، فقد باتوا يرون ان « بروتو » نفسه لم يكن يصدق الا نصف ما يقول . وكانت آراؤه فردية وفذة لدرجة جعلتها تبدو فى نظرهم مصطنعة ، فلم يقتنع بها أحد اطلاقا . فقد راح يتكلم عن « جان ــ جاك » كما لو كان لصا حقيرا . وعلى النقيض من ذلك ، رفع « فولتير » الى مصاف القديسين ، وان لم يجعله مساويا لهيلفتيوس ــ الحبيب الى نفسه ــ ولديدرو ، وللبارون دولباخ . وكان اعظم عباقرة القرن ــ فى رأيه ــ هو «بولانجيه» ، كما كان يقدر الفلكى « لالاند » ، و «دوبوى» مؤلف «مذكرات فى اصول مجموعات الكواكب» . **فكان اهل المجون فى الغرفة ، يتفكهون بألف نكتة عن البرنابى البائس ، دون ان يفطن الى شىء من هذا ، فقــد كان نقاء سريرته يعفيه من البذاءات .**

ورغبة فى اقصـــاء الهمـــوم التى كانت تثقل عليهم ، والخلاص من تباريح السأم والفراغ ، كان المســجونون يلعبون « الضامة » والورق والنرد . ولم يكن يؤذن لهم بأية آلة موسيقية ، فكانوا ــ بعد العشاء ــ يقبلون على الغناء أو رواية الشعر . وكان ديوان فولتير « العذراء » يبث شيئا من الطرب فى قلوب اولئك التعساء ، فلم يكن يفوتهم سماع ابدع ما فيه . **ولكنهم كانوا يعجـزون عن ان يصرفوا عنهم الفكرة المرعبة التى كانت تكمن فى حبات قلوبهم ، فـــكانوا يحاولون ــ احيانا ــ ان يجعلوا منها مادة للتفكه ..** وكانوا ــ فى الحجرة ذات الثمانية عشر سريرا ــ يقومون بعد العشاء ،

وقبيل النوم ، بتمثيل محكمة الثورة ، فتوزع الادوار وفقا للأذواق والميول ، بين قضاة ومدعين ، ومتهمين وشهود ، وجلاد ومساعديه . وكانت المحاكمة تنتهى دائما باعدام المتهمين ، فيلقى بهم على سرير ، ورقابهم تحت لوح من الخشب . وينتقل المنظر - بعد ذلك - الى جهنم ، فكان آخف الجماعة حركة يلتفون فى ملاءات ليمثلوا الاشباح . وكان ثمة شاب من (بوردو) ، ضئيل الجسم ، أسود اللون ، اعور ، أحدب ، معوج الساقين ، يشبه الشيطان تمام الشبه .. **وقد أخذ على نفسه ان يذهب الى الأب لونجمار بقرنيه، فيجره من قدميه خارج سريره ، ويعلنه بأنه قد قضى عليه بأن يصلى النار خالدا فيها ابدا ، وباللعنة التى لا سبيل الى رفعها ، لأنه جعل من اله الكون كائنا حقودا ، شريرا ، خبيثا ، عدوا للبهجة والحب .**

وكان هذا الشيطان يصيح بصوت منكر : « آه ، آه ، آه !.. اذن فقد كنت تعلم الناس ،ايها القرد المكتهل ، ان الله يسر برؤية خلقه وهم يعانون الذلة والضنك فى سبيل التوبة ، ويحرمون أنفسهم من أثمن نعمه . ايها المخادع ، المرائى ، المخاتل .. اجلس على المسامير ، وليكن قشر البيض طعامك أبد الآبدين » !

وكان الاب لونجمار يقنع بأن يقول ان الفيلسوف كان يكمن وراء ابليس - فى هذا الكلام - وان احط زبانية الجحيم قد أوتى نفحة من علم اللاهوت ، فهو - يقينا - اقل جهلا من مؤلفى الموسوعة (الانسيكلوبيديا) ! .. ولكن وجهه كان يحمر غضبا اذا ما نعته المحامى بأنه كبوشى ، وكان يقول ان الذى لا يميز بين البرنابى والفرنشسكانى ، اعمى ولابد .

وراحت محكمة الثورة تخلى السجون ، فتملؤها اللجان

بلا هوادة ، حتى ان نصف عدد الذين كانوا فى حجرة الثمانية عشر ، تجدد خلال ثلاثة أشهر . وفقد الاب لونجمار شيطانه ، فان المحامى « دوبوز » اقتيد الى محكمة الثورة ، وقضى عليه بالاعدام بوصفه اتحاديا ، ومتآمرا ضد وحدة الجمهورية . وعند خروجه من المحكمة ، مر — كغيره من المقضى عليهم بالموت — فى ردهة تتخلل السجن ، وتتصل بالحجرة التى كان مبعث مرح فيها لثلاثة اشهر ، واذ راح يودع زملاءه ، ظل محتفظا بما عهد فيه من خفة دم ومرح . وقال للاب لونجمار : « سامحنى يا سيدى ، اذ كنت أشدك من قدميك ، من السرير . لن اعود الى ذلك ثانية » . وتحول الى بروتو قائلا : « **وداعا ، فانى اسبقك الى العدم ، وارد الى الطبيعة — راضيا — العناصر التى تكوننى ، آملا ان تحسن استعمالها فى المستقبل ، اذ لابد من الاعتراف بأنها لم توفق فى تكوينى !** »

وهبط تاركا بروتو واجما ، والاب لونجمار مرتجفا وقد اخضر لونه ، كأنه ورقة شجر .. فكان ميتا اكثر منه حيا ، اذ رأى الزنديق يضحك وهو على شفا هاوية النهاية .

***

وعندما عاد شهر « جرمينال » **(٨٢)** بالأيام الصحوة ، اخذ بروتو — الذى كان مشغوفا بالغزل — يهبط عدة مرات فى اليوم ، الى الفناء المتصل بقسم النساء ، بالقرب من النافورة التى كانت المسجونات يفدن عليها فى الصباح ، ليغسلن ثيابهن . **وكان ثمة حاجز من القضبان الحديدية يفصل بين القسمين ، ولكن الفجوات لم تكن من الضيق بحيث تمنع الايدى من التقابل ، والشفاه من التلاصق .**

(٨٢) جرمينال : الشهر السابع فى التقويم الثورى . من ٢١ مارس الى ١٩ ابريل .



– الا تعرفين ابنتك ؟.. قبليني يا أماه !

(ص ٢٣٤)

وفى الامسيات الطليلة ، كان العشاق يتعانقون هناك ازواجا . ومن ثم كان « بروتو » يتسلل الى السلم ، فيجلس على احدى الدرجات ، ويخرج من جيب « ردينجوته » ديوان « لوكريس » الصغير ، ويقرأ — على ضوء مصباح — بعض اقواله المواسية : « عندما نكف عن الحياة ، فلن يقوى شىء على تحريكنا .. حتى السماء ، والارض ، والبحر ، لن تقوى على ان تجمع بقايانا .. » . بيد ان « بروتو » — برغم حكمته — كان يغبط البرنابى على غبائه الذى كان يحجب الكون عن عينيه .

واخذ الذعر يتفاقم شهرا بعد شهر . وفى كل مساء ، كان السجانون السكارى ، يتنقلون — مع كلاب الحراسة — من « زنزانة » الى « زنزانة » ، حاملين قرارات الاتهام ، منادين الاسماء بلهجة مدغمة ، موقظين المسجونين ، مروعين بمائتين فى طلب عشرين فقط . وفى تلك الردهات — التى كانت تزخر بالاشباح الدامية — اخذ يمر عشرون .. ثلاثون .. خمسون من المقضى عليهم بالاعدام — فى كل يوم — بين كهول ونسوة ويافعين .. متباينى الظروف ، والشخصيات ، والمشاعر ، حتى ان المرء لم يكن يملك ان يتساءل عما اذا كانوا قد اختيروا بالقرعة !

واستمر لعب الورق ، وشرب نبيذ بورجونى ، ورسم الخطط ، وضرب المواعيد فى الليل ، عند السياج . وكان مجتمع السجن — وقد تجدد تجددا شاملا ، تقريبا — قد بات مؤلفا فى معظمه من « المغالين » و « الساخطين » . بيد ان غرفة السراير الثمانية عشر ظلت موئل الظرف واللطف . فلم تكن تضم غير اشراف ، يتبادلون الثقة ، فيما عدا اثنين اقتيدا اليها اخيرا ، وقد نقلا من (اللوكسمبورج) و (الكونسيرجيرى) ، واشتبه فى انهما « خروفان » ، أى

« جاسوسان » . وهما المواطنان : « نافيت » و « بيليبه » . واحتفل القوم – وكؤوسهم فى ايديهم – بانتصارات الجمهورية .. وهناك – فى هذه الحجرة – التقى عدد من الشعراء ، كما هى الحال فى كافة اجتماعات الطلقاء . ونظم اكثرهم مكرا قصائد عن انتصارات الجيش فى (الرين) ، وراحوا يلقونها بلهجة خاصة ؛ فكانوا يقابلون بالهتاف الحار .. « بروتو » وحده هو الذى لم يعر المنتصرين – ولا المشيدين بهم – اهتماما . وقد قال يوما : « لقد تملك الشعراء – منذ ايام هوميروس – هوس غريب بتمجيد العسكريين . ان الحرب ليست فنا ، بل الحظ وحده هو الذى يقرر مصير المعارك . فمن المحتوم ان واحدا – من كل قائدين غبيين يقف أحدهما فى وجه الآخر – يكون مظفرا . الا انتظروا حتى يقدر لواحد من حملة السيف هؤلاء ، ان يبتلعكم جميعا كما ابتلعت البومة الضفادع ، فى الاساطير . اذذاك سيكون ثمة اله حقا ، فقد عرفت الآلهة بشراهتها ! »

وما هزت امجاد الجيوش « بروتو » يوما ، ولا طرب قط لانتصارات الجمهورية ، التى توقعها من قبل .. فما أحب اطلاقا العهد الجديد ، الذى كفل الانتصار . وكان ساخطا .. ولأقل مما لقى وعانى كان المرء يسخط !

وفى ذات صباح ، اعلن ان قوميسيرى لجنة الامن العام قد اعتزموا اجراء تفتيش بين المسجونين ، وان يستولوا على الاوراق المالية ، والسلع الذهبية والفضية ، والمدى ، والمقصات .. **وان تفتيشا كهذا اجرى فى (اللوكسمبورج) ، فصودرت خطابات ، واوراق ، وكتب . لذلك سعى كل واحد الى البحث عن مخبأ يودعه ما لديه من اشياء يعتز بها** . فحمل الأب لونجمار دفاعه بين ذراعيه ، وخبأه فى ميزاب . بينما دفن « بروتو » ديوان « لوكريس » فى رماد

المدفأة . فلما اقبل القوميسيرون – وحول اعناقهم الاوشحة الثلاثية الالوان – ليقوموا بتفتيشهم ، لم يعثروا على شيء سوى ما قدر القوم ان من المسموح لهم استبقاءه . وعقب رحيلهم ، هرع الأب لونجمار الى ميزابه ، وجمع من دفاعه ما أبقى عليه الماء والريح . واسترد « بروتو » من المدخنة ديوانه وقد سوده السناج . فقال لنفسه : « لنغتبط بالساعة الراهنة ، فانى استشف من بعض الامارات ، ان الوقت سيحسب علينا – منذ الآن – فى اضيق نطاق » .

***

وفى احدى الليالى اللطيفة ، لم يكد القمر يبزغ فى السماء الشاحبة ، مطلا على فناء السجن بقرنيه الفضيين ، حتى عمد الشيخ الى ما اعتاده ، فجلس يقرأ ديوان « لوكريس » على درجة من السلم الحجرى .. **واذا به يسمع صوتا يناديه .. صوتا نسويا ، عذبا ، لم يعرفه . فهبط الى الفناء ، وخلف قضبان السياج ، لمح شكلا لم يتبينه بأكثر مماتبين الصوت ، وانما ذكرته خطوطه المبهمة الفاتنة ، بكل من أحب من نساء** . وكانت السماء تفيض بلون لازوردى فضى .. وفجأة ، تعرف « بروتو » فى صاحبة الصوت على ممثلة شارع (فيدو) الجميلة .. **« روز تيفينان » !**

– انت هنا يا صغيرتى !.. ان لرؤيتك فى نفسى فرحة قاسية . منذ متى انت هنا ، ولماذا ؟

فقالت : « منذ الأمس » . ثم اردفت : « لقد دمغت بأننى ملكية ، واتهمت بالتآمر لانقاذ الملكة من سجنها . ولقد عرفت انك هنا ، فسعيت لتوى الى رؤيتك . اصغ الى ، يا صديقى .. أتحب ان اناديك بهذا اللقب ؟.. **اننى اعرف اناسا من ذوى المكانة ، واعلم ان لى من يولوننى العطف ، حتى فى لجنة الأمن ذاتها . وسأحمل اصدقائى على العمل**

كى يخلصونى ، وسأخلصك بدورى » .

ولكن بروتو قال بصوت شديد التأثير : « استحلفك بكل عزيز لديك ، ان لا تفعلى هذا يا صغيرتى !.. لا تكتبى ، ولا تتوسلى ، ولا تطلبى من شخص شيئا .. استحلفك بأن تتركى نفسك منسية ! » .. واذ بدا ان مقصده لم ينفذ الى ادراكها ، عاد يناشدها : « **الزمى الصمت يا روز ، ودعيهم ينسوك ، ففى هذا السلامة . ان كل محاولات اصدقائك لن تؤدى الا الى التعجيل بهلاكك . فاكسبى الوقت ، ولن تلبثى بعد قليل – وقليل جدا فيما آمل – ان تظفرى بالنجاة .** ولا تحاولى التأثير على القضاة والمحلفين .. وعلى جاميلان ، بوجه خاص . فهم ليسوا من البشر ، وانما هم اشياء جامدة ، والمرء لا يتفاهم مع الجماد . دعى نفسك منسية . واذا اتبعت نصيحتى يا صديقتى ، فسأموت وانا سعيد بأنى انقذت حياتك » .

فأجابت : « سأطيعك .. ولكن ، لا تتحدث عن الموت » . فهز كتفيه قائلا : « لقد انتهت حياتى يا ابنتى ، فعيشى انت واسعدى ! » . وأمسكت بيده ، فوضعتها على صدرها قائلة : « اصغ الى يا صديقى .. اننى لم ارك سوى يوما واحدا ، ومنذ ذلك الحين لم تعد عنى غريبا . **واذا كان ما سأقوله لك ، كفيلا بأن يجعلك تتشبث بالحياة ، فصدقه .. اننى لك .. كيفما تريدنى ان اكون ! »**

وطبعت على شفتيه قبلة ، من بين فرجات القضبان .

الفصل العشرون



• **اغمض** « ايفاريست جاميلان » عينيه ـ اثناء جلسة طويلة فى المحكمة ، لازم فيها مقعده الخشبى ، فى جو قائظ ـ وراح يفكر : « ان الاشرار قد حولوا « ماراً » ـ حين اضطروه الى الاختباء فى الشقوق ـ الى طائر من طيور الليل .. طائر الحكمة الذى تنفذ نظراته ثاقبة لتكشف المتآمرين فى الظلمات التى ينتشرون فيها . اما اليوم ، فان النظرة التى تهتك ستر اعداء الدولة ، وتفضح الخونة بحذق لم يعرف حتى عن صديق الشعب ، الراقد ـ الى الابد ـ فى حديقة « الكورديلييه » ، نظرة زرقاء ، باردة ، ساكنة .. **ان المنقذ الجديد يضارع سلفه حمية ، ويفوقه حذقا وبصيرة ، فهو يرى ما لم يره أحد ، وتشير اصبعه المرفوعة الى الارهاب** . وانه ليميز الظلال الرقيقة ، التى تعز على

الادراك ، والتى تفصل السـوء عن الخير ، والرذيلة عن الفضيلة ، فلولاه لتخبط القـوم فى تلك الظلال ، ولأضروا بالوطن وبالحرية .. انه يرسم نصب عينيه خطا رفيعا ، جامدا لا يلين ، لا يوجد خارجه - عن اليمين وعن الشمال - سوى الخطأ ، والاجرام ، والشر . ان « المعصوم » يبين للناس ان المغالاة والضعف واضطهاد الطوائف الدينية باسم العقل ، ومقاومة قوانين الجمهورية باسم الدين .. كلها لا تخـدم سـوى الأجنبى . وليس أخس من الانذال الذين اغتالوا « لوبلتييه » و « مارا » ، سوى اولئك الذين يخـدمون الاجنبى اذ يطعنون فى شرف هذين الزعيمين - على قداسته - ليئدوا ذكراهما . **كل من ينبذ مبادىء النظام ، والحكمة ، والليـاقة صنيعة للاجنبى .. كل من يمتهن الآداب ، ويخدش الفضيلة ، وينكر - فى جهالة فؤاده - الله ، عميل للأجنبى . لقد استحق القساوسة المتعصبون الموت ، ولكن هناك طريقة للقضـاء على التعصب ، تنطوى على اضرار بالثورة ، وتتمثل فى ألوان الكفر الاجرامية .. ففى الاعتدال ضياع الجمهورية .. وفى العنف هلاكها !**

« اواه ! انها لرهيبة ، واجبـات القاضى ، التى أملاها أحكم الناس !.. لم يعد الارستقراطيون ، والاتحـاديون ، وانذال مؤامرة اورليان ، واعداء الوطن السـافرون ، هم الذين يستحقون أن يسحقوا وحدهم . ان المتآمر ، عميـل الاجنبى ، حرباء تتلون بكل لون . فهو يتخذ شكل الوطنى ، والثورى ، وعدو الملوك .. وهو يصطنع شجاعة قلب لا يخفق الا للحرية ، ويطلق صوتا يرتجف له اعداء الجمهـورية ..

انه « دانتون » **(٨٣)** ، فان عنفه يخفق فى ستر اعتداله المقيت ، وقد افتضح فساده أخيرا .. ان المتآمر ، صنيعة الاجنبى هو ذلك الألكن البليغ ، الذى وضع فى قبعته اولى شارات الثورة ، وهو صاحب النشرات الانتقادية الهجائية ، الذى دعا نفسه ، فى غيرته الوطنية الساخرة ، القاسية : « حامل المشعل » ، الا وهو « كاميى ديمولان » **(٨٤)** ، الذى فضح نفسه اذ راح يدافع عن القادة الخونة ، ودعا الى اخذهم بالرحمة ، والرحمة — فى غير الاوان المناسب — اجرام !.. ان المتآمر الخائن هو «فيليبو» .. هو « هيرو » .. هو « لاكروا » الحقير .. المتآمر ، عميل الاجنبى هو ذلك الاب دوشين ، الذى نال من الحرية بديماجوجيته الوضيعة ، والذى استثار بمفترياته الدنسة العطف ، حتى على « انتوانيت » .. انه « شومين » ، الذى بدا لطيفا ، محبوبا ، معتدلا ، طيبا ، صالحا فى أدارة الجمعية العامة ، ولكنه كان كافرا !.. **ان المتآمرين وصنائع الاجنبى هم كل هؤلاء « السانكيلوت » ، ذوى القلانس الحمراء والكرمانيولات والنعال الخشبية ، الذين راحوا ينافسون اليعاقبة — برعونة وغباء — فى سوق الوطنية** .. ان المتآمر ،

---

(٨٣) جورج — جاك دانتون (١٧٥٩ — ١٧٩٤) : كان محاميا ومستشارا ملكيا الى سنة ١٧٩١ ، اذ أنشأ منتدى الجيليين وغدا من كبار الثوريين وأعظم خطباء الثورة ، ولعب دورا كبيرا فى انشاء محكمة الثورة ، وجنح الى العنف ، ولكنه لم يكن يرى فى الارهاب سوى وسيلة مؤقتة للحكم . ومع ذلك فقد اتهمه « روبسبير » بالاعتدال والخيانة ، فأعدم بالمقصلة .

(٨٤) كاميى ديمولان (١٧٦٠ — ١٧٩٤) : كان محاميا وصحفيا ، وهو الذى دعا العامة — فى ١٠ اغسطس ١٧٨٩ — الى التسلح واقتحام «الباستيل» . وقام بدور كبير فى الثورة ، ولكنه حين تمنى نهاية الارهاب ، اتهم بالاعتدال واعدم . وكتبت زوجته «لوسيل دوبليس» خطاب سبت فيه «روبسبير» فأعدمت بدورها .

صنيعة الاجنبى ، هو «اناكارسيس كلوت» ، خطيب الجنس الانسانى ، الذى أهدر دمه جميع ملوك العالم ،ولكن كان من الخليق أن يخشى شره ، اذ كان بروسيا !

« وبعد .. كل هؤلاء الاشرار ، كل هؤلاء الخونة - سواء دعاة العنف منهم او دعاة الاعتدال - قد هلكوا تحت حد البلطة : دانتون ، ديمولان ، هيبير (٨٥) ، شوميت .. لقد نجت الجمهورية . ومن جميع اللجان وجميع الجمعيات الشعبية ، تتصاعد أهازيج التقريظ الى مكسميليان (روبسبيير) والجبل (٨٦) .. ويتصايح المواطنون الصالحون : « ايها المندوبون الجديرون بتمثيل شعب حر .. عبثا يحاول ابناء الافاعى ان يرفعوا رؤوسهم المؤذية .. ايها الجبل ، يا جبل الرحمة ، يا حامى الأمة .. من صدرك الجياش انطلقت الحمم التى كفلت السلامة ! » ..

« وفى هذه الاهازيج ، نالت المحكمة نصيبها من المديح . ما أحلى ان يكون المرء فاضلا ، وما احب العرفان من الجمهور الى قلب القاضى النزيه !

« ومع ذلك ، فياله من مبعث للعجب ، ويالها من اسباب للقلق ، بالنسبة للقلب المتعلق بحب الوطن !.. لماذا ؟ الم يكن ميرابو ، ولافاييت ، وبايى ، وبيتيون ، وبريسو ، كافين لخيانة قضية الشعب ؟.. **أفكان لزاما ان يقضى كذلك على اولئك الذين ادانوا هؤلاء الخونة ؟.. لماذا ؟ أفقدر لأولئك الذين صنعوا الثورة ، ان لا يصنعوها الا ليقضوا عليها ؟!..**

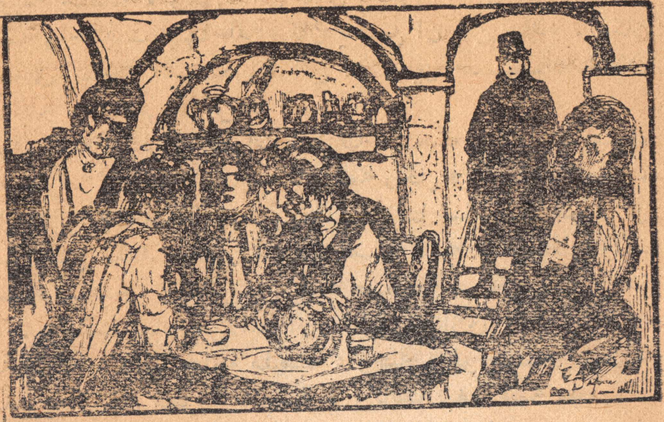
---

(٨٥) جاك هيبير (١٧٥٧ - ١٧٩٤) : رئيس تحرير اعنف الصحف الثورية ، وقد كان من انصار مذابح سبتمبر . ومع ذلك تخلص منه «روبسبير» داعية الارهاب .

(٨٦) لقب اطلق على المنادين بأشد ألوان العنف ، فى المؤتمر .. وذلك لانهم كانوا يحتلون أعلى المقاعد فى قاعة المؤتمر .

فاذا هؤلاء العظام ، الذين صاغوا الايام الجليلة ، يمهدون مع « بيت » لاقامة عرش اورليان ، او الوصاية على لويس السابع عشر ؟!.. ماذا ؟ أكان دانتون هو « مونك » ؟!.. ماذا ؟ أكان شوميت والهيبيرتيون اكثر خيانة من الاتحاديين الذين دفعوا بهم الى المقصلة ، فأقسموا ان يقضوا على الدولة ؟!.. ولكن ، ألن تكشف عين روبسبيير الزرقاء فى الفد ، بين الذين ساهموا فى موت الخونة من امثال دانتون ، والمضللين من امثال شوميت ، من هم اكثر منهم زيفا ونفاقا ؟.. ترى اين يقف هذا الانسياق المقيت فى اعتقال الغادرين والخونة ونفاذ بصيرة « المعصوم » الثاقبة ؟.. »

الفصل الواحد والعشرون



• في تلك الاثناء ، دأبت « جولى جاميلان » على الذهاب يوميا ـ مرتدية سترة الرجال الخضراء الزيتونية ـ الى حديقة (اللوكسمبورج) . وهناك ، كانت تنتظر ـ على مقعد فى طرف أحد الدروب ـ لحظة ظهور حبيبها فى احدى نوافذ القصر الضيقة . فينهمكان فى التخاطب بالاشارات ، وتبادل خواطرهما بلغة صامتة من ابتكارهما . وعرفت « جولى » ـ بهذه الوسيلة ـ ان السجين كان ينزل فى حجرة لا بأس بها ، ويحظى بصحبة مستحبة ، ويحتاج الى غطاء وسخان ، وانه يحب صاحبته كل الحب .

ولم تكن الوحيدة التى تتطلع الى وجه حبيب فى ذلك القصر الذى تحول الى سجن . فقد كانت على مقربة منها أم شابة اعتادت ان تعلق نظراتها بنافذة مغلقة ، وما ان تراها تفتح ،

حتى ترفع طفلها بين ذراعيها الى قمة رأسها .. وسيدة عجوز ، مقنعة بخمار من « الدانتيل » ، كانت تقف الساعات الطويلة جامدة ، وهى تأمل دون جدوى ، ان تلمح — ولو للحظة واحدة — ابنها الذى كان يخشى ان يهن جلده . فكان يلعب فى ساحة السجن ، الى ان تحين ساعة اغلاق الحديقة .. حتى لا يراها !

وفى اثناء هذه الانتظارات الطويلة ، تحت السماء — سواء فى صحوها أو اكفهرارها — كان ثمة رجل فى اوسط العمر ، يميل الى الضخامة ، ويعنى بملبسه ايما عناية .. اعتاد ان يجلس على مقعد مجاور ، وهو يعبث بعلبة سعوطه وزوائد سلسلة ساعته ، وينشر بين يديه صحيفة لم يكن يقرأها قط . وكانت ثيابه من الطراز « البورجوازى » القديم .. قبعة مثلثة ، ذات حافة مذهبة ، وحلة برقوقية اللون ، وصديرية زرقاء مطرزة بالفضة . وكانت تبدو عليه سيماء الاستقامة . ومن قيثارة كان احد طرفيها يطل من جيبه ، كان المرء يشتم انه موسيقى . ولم تكن عيناه تحيدان لحظة عن الشاب الزائف (جولى) ، ولا كان يكف عن الابتسام له . فاذا رآه ينهض ، نهض بدوره وتبعه عن كثب . وشعرت جولى — فى محنتها ووحدتها — بتأثر من العطف المتهيب الذى كان هذا الرجل الطيب يبديه .

وفى ذات يوم ، بدأ المطر يتساقط اثناء مغادرتها الحديقة ، فاقترب الرجل الطيب منها ، وفتح مظلته الحمراء الواسعة ، وسألها ان تسمح له بأن يقيها المطر تحتها . واجابته بلطف ، معلنة موافقتها بصوتها الصافى . ولكنه لم يكد يسمع هذا الصوت — ولعله اشتم كذلك رائحة الانوثة الفواحة — حتى اسرع بالابتعاد ، تاركا الشابة معرضة لمطر أخذ يشتد .. وادركت « جولى » جلية الامر ، فلم تتمالك

ان ابتسمت برغم همومها . (٨٧)

وقطنت جولى فى غرفة صغيرة بشارع (شيرش — ميدى) ، متظاهرة بأنها وسيط لبيع الاقمشة يبحث عن عمل . اذ كانت الارملة المواطنة جاميلان قد اقتنعت — أخيرا — بأن ابنتها ما كانت لتتعرض لخطر بالغ الا بالقرب منها ، فأقصتها عن ميدان (تيونفيل) ، وعن قطاع (بون نيف) بأسره ، وراحت تقدم اليها ما كان بوسعها ان تقدم من طعام ولباس . وأصبحت جولى — كلما فرغت من طهو طعامها — تسعى الى (اللوكسمبورج) لترى حبيبها الفالى ، ثم تعود الى مسكنها المتواضع . وكانت رتابة هذه الحياة القلقة تهدهد أحزانها .. ولما كانت بعد شابة ، وفتية ، فانها كانت تستغرق الليل كله فى نوم عميق . ولما كانت بطبيعتها جريئة ، تعودت المغامرة والمخاطرة — وربما بدافع من الزى الذى كانت ترتديه — فانها كانت تذهب فى بعض الامسيات الى حانوت بائع لشراب الليمون ، بشارع (دوفور) — عند لافتة الصليب الاحمر — اعتاد ان يؤمه اناس من كافة الانواع ، ونساء من ذوات اللطف والادب . فكانت تقرأ الصحف هناك ، وتلعب النرد مع كاتب بأحد الحوانيت او عسكرى كان ينفث دخان غليونه فى انفها . وهناك ، كان الشرب واللعب ، والحب ، و .. الشجار فى كثير من الاحيان .

وفى احدى الليالى ، رفع احد الشاربين ستار النافذة ، اذ سمع وقع حوافر خيل على الطريق المرصوفة ، وما ان تبين قائد الحرس الوطنى — المواطن هانريو — منطلقا على جواده ، مع اركان حربه ، حتى غمغم وهو يصر على اسنانه : « هاهى ذى اتان (حمارة) روبسبير ! »

---

(٨٧) المفهوم ان الرجل ظنها من عيون الحكومة الذين يندسون بين الشعب ، فآثر البعد عنها .

وعند ذلك ، أطلقت جولى ضحكة عالية مدوية ..واذا بمواطن ذى شاربين يصيح وقد اربد محياه : « ان الذى يتكلم هكذا امرأة ارستقراطية ، وسيسرنى ان ارى رأسه تهوى فى سلة الجلاد . الا اعلموا ان المواطن هانريو وطنى صالح ، جدير بأن يذود ـ عند الحاجة ـ عن باريس والمؤتمر . وهذا ما لا يغتفره له الملكيون اطلاقا ! » . **وحملق الوطنى ذو الشاربين فى وجه جولى ، التى لم تكف عن الضحك ، وصاح : « وانت يا ذا المنقار الابيض ، احذر من ان اركلك بقدمى فى مؤخرتك ، لأعلمك احترام الوطنيين »** .

واذذاك تعالت الاصوات بين قائل : « ان هانريو سكير ، وغبى ! » .. وقائل : « ان هانريو يعقوبى صالح . ليحى هانريو ! » .

وانقسم القوم فريقين اشتبكا فى عراك ، فهوت اللكمات على القبعات المزقة ، وقلبت الموائد ، وتطايرت شظايا الكؤوس ، واطفئت المصابيح ، واطلقت النساء صرخات حادة . **وتحت تدافع عدد من الوطنيين ، تحصنت «جولى» وراء اريكة ، ولكنها حوصرت ، فانهالت على مهاجميها عضا وخمشا . وانشق صدر سترتها ، وتمزق قميصها فبرز ثديها النافر** . وكانت احدى «داوريات» الحرس قد اقبلت مهرعة على الضجيج ، فافلتت الارستقراطية الشابة ، من بين سيقان الشرطة ، ولاذت بالفرار .

***

وظلت العربات تمتلىء بالمقضى عليهم بالاعدام ، فى كل يوم . وراحت جولى تقول لامها : « ليس بوسعى ـ مهما يكن الامر ـ ان اترك حبيبى يموت ! »

وقررت ان تسعى ، وان تسوق الرجاءات ، وان تذهب

الى اللجان ، والى المكاتب ، والى بيوت المندوبين ودور القضاة ، والى كل مكان ينبغى ان تذهب اليه . ولم يكن لديها ثوب ما ، فاستعارت لها أمها – من المواطنة بليز – ثوبا مخططا ، ووشاحا ، وغطاءا للرأس من « الدانتيل » .. وفى ثياب امراة – وامرأة وطنية – ذهبت جولى الى مسكن القاضى « رينودان » ، فى منزل رطب ، معتم ، بشارع (مازارين) .

وصعدت بقدمين مرتجفتين السلم الذى صنعت درجاته من الخشب والبلاط ، فاستقبلها القاضى فى حجرة مكتبه البائسة ، التى لم تكن مؤثثة بغير مكتب من خشب الصنوبر ومقعدين من القش . وكان ورق الجدران مهلهلا يتدلى فى شرائح . وكان « رينودان » – بشعره الاسود الملتصق بجبهته ، ونظراته المتجهمة ، وشفتيه المتهدلتين وذقنه البارزة – بادى العبوس . واشار اليها ان تتكلم ، ثم راح يصغى فى صمت . فقالت له انها اخت المواطن شاسانى ، نزيل سجن (اللوكسمبورج) ، وعرضت عليه – فى اقصى ما استطاعت من دهاء وحذق – الظروف التى القى فيها القبض على الرجل ، وبدت مؤثرة وهى تصوره البرىء السىء الحظ .

وظل جامدا ، لم تختلج فيه جارحة تنم عن تأثر .

راحت تبكى – عند قدميه – ضارعة .. فما ان رأى دموعها حتى تبدل وجهه ، فتأججت مقلتاه – اللتان كانتا سوداوين باحمرار – وتحرك فكاه الضخمان وكأنه يزدرد اللعاب ، فى حلقه الجاف . وقال : « سنجرى اللازم ايتها المواطنة ، فلا تجزعى ! »

وفتح بابا ، فدفع المتوسلة الى «صالون» وردى صغير ،

نقشت على جدرانه صور بالزيت .. وكانت به مجموعات من « البسكويت » ، وساعة دقاقة ، وثريات مذهبة ، ورسوم للرعاة ، واريكة مكسوة بقماش مزدان بصور برية لبوشيه ..

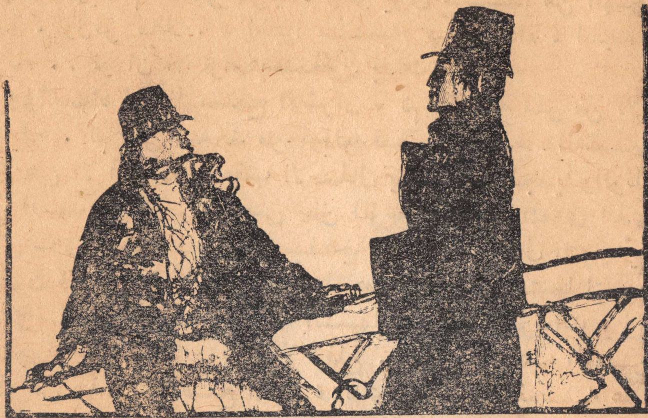
وكانت جولى على استعداد لكل شىء ، فى سبيل انقاذ حبيبها ..

وكان « رينودان » خشنا ، وسريعا .. وعندما نهضت ، وراحت تسوى ثوب المواطنة ايلودى الجميل ، التقت نظراتها بالنظرات الساخرة ، القاسية التى كانت تنبعث من عينى هذا الرجل .. وشعرت على الفور بأنها قدمت تضحية غير مجدية . فقالت : « لقد وعدتنى بحرية اخى » .. فقال ضاحكا : « بل قلت لك – ايتها المواطنة – اننا سنجرى اللازم ، اى ان نطبق القانون .. لا اكثر ، ولا اقل . وقلت لك ان لا تجزعى . ولماذا تجزعين ؟.. ان محكمة الثورة عادلة دائما » .

وخطر لها ان تنقض عليه فتعضه ، وتفقأ عينيه . ولكنها رأت انها بذلك تحقق هلاك فورتونيه شاسانى ، فغادرت المسكن مهرعة ، وخلعت – فى وكرها – ثوب ايلودى المدنس . وهناك ، قضت الليل بطوله وحيدة ، تبكى غيظا وأسى .

وعادت الى (اللوكسمبورج) فى اليوم التالى ، فرأت الحديقة تحفل بالشرطة الذين راحوا يطردون النسوة والاطفال . ووقف فى الدروب حراس يمنعون المارة من الاتصال بالمسجونين . وقالت الام الشابة – التى كانت تفد يوميا حاملة طفلها – ان ثمة اقاويل عن مؤامرة فى السجون ، وان النساء كن يسقن الى التجمع فى الحديقة ليثير منظرهن عطف الشعب على الارستقراطيين والخونة .

الفصل الثانى والعشرون



• **قام** فى حديقة « التويلرى » ـ فجأة ـ جبل ..
كانت السماء صحوة ، خالية من السحب . وسار مكسميليان (روبسبير) على رأس زملائه ، فى سترة زرقاء ، وسروال اصفر ؛ وقد حمل فى يده باقة من السنابل وزهر الخشخاش . وصعد الجبل ، فأعلن اله « جان ـ جاك » ربا للجمهورية الحنون . فياللطهر ! يا للوداعة ! ياللايمان ، ياللبساطة العريقة ! يالدموع الشفقة ! ياللندى الوردى ! ياللرحمة ! ياللاخوة الانسانية !

عبثا حاول الالحاد ان يكشف عن وجهه البغيض ، فقد أمسك مكسميليان مشعلا ، فالتهمت اللهب الوحش ، وتجلت الحكمة تشير باحدى يديها الى السماء ، وتمسك بالاخرى اكليلا من النجوم .

وعلى المنصـــة التى اقيمت امام (التويلرى) ، راح « ايفاريست » ـ وسط الجمـوع المتأثرة ـ يذرف دموعا رقيقة ، ويقدم الشكر للرب ، وهو يرى عهـدا من الهناءة يبدأ . وزفر قائلا : « اخيرا سنصبح سـعداء ، انقياء ، ابرياء .. لو ان الاشرار يسمحون بذلك ! »

وواأسفاه !.. لم يسمح الاشرار . لم يكن ثمة مفر من آلام جديدة . لم يكن ثمة بد من اراقة فيض من الدماء الدنسة . فان هى الا أيام ثلاثة عقب الاحتفال بالتحالف الجديد والوئام بين السماء والارض ، حتى أعلن المؤتمر القانون العرفى الذى ابطل ـ فى قسوة قامت على سذاجة ـ كافة الاشكال التقليدية للقانون ، وكل ما كان معروفا منذ عهد الرومان ومتبعا لتأمين البرىء الذى تحـوم حوله الشبهات . فلا اجراءات ، ولا استجوابات ، ولا شهود ، ولا دفاع .. بل بات حب الوطـن فوق كل هذه . وأصبح المتهم ، الذى يطوى جوانحـه على جرمه أو براءته ، يمر صـامتا أمام المحلفين الوطنيين .. فى الوقت الذى بات فيه لزاما أن تفحص فيه قضيته ، وربمـا كانت عويصة أحيانا ، وكثيرا ما تكون معقدة ، غامضـة . **فكيف كان للمحلفين أن يحكـموا ؟.. وكيف كان لهم أن يتبينوا ـ فى لحظة ـ الرجل الشريف من الرجـل الاثيم ، والوطنى من عدو الوطن ؟**

وبعد فترة من الارتباك ، فهم « جاميلان » واجبـاته الجديدة ، وهيأ نفسه للمهام المبنية عليها . فرأى فى اختصار الاجراءات الروح الحقيقية لهذه العدالة الرهيبة ، التى لا يتولاها قضاة يستبيحون لأنفسهم فسحة من الوقت ليزنوا ما للمتهم وما عليه ، وانما يتولاها « الســانكيلوت » ، فيصدرون أحكامهم على ضوء الوطنية الذى يكشف لهم كل شىء فى جلاء . وبعـــد ان ضلت الكفالات والاحتياطات

جميعا ، صار على القلب المخلص المستقيم ان ينقذ بخفقاته كل شيء . وبات من الواجب اتباع ايحاءات الطبيعة ، هذه الأم الرؤوم التى لا تخطىء البتة .. صار لزاما الحكم على هدى القلب . فهتف جاميلان مخاطبا روح جان ـ جاك : « الا الهمني ـ ايها الرجل الفاضل ـ حب الناس ، والعزم الصادق على صهرهم وتشكيلهم من جديد ! »

وكان أغلب زملائه يشعرون بمثل شعوره . فقد كانوا ـ فى الغالب ـ مفطورين على البساطة ، فحيثما بسطت الاجراءات كان ذلك ادعى لارتياحهم ورضائهم . وصادفت العدالة المقتضبة قبولا لديهم . **ولم يعودوا يهتمون بغير آراء المتهمين ، فقد وقر فى انفسهم ان اى امرىء خلو من الشر لايمكن أن يفكر الا على شاكلتهم . واذ كانوا يوقنون من انهم اوتوا الحقيقة ، والحكمة ، والنية الصادقة ، فقد راحوا يعزون الى خصومهم كل الخطأ وكل الشر . وأحسوا بالقوة ، وبأنهم كانوا يرون الله .**

اجل ، بات محلفو محكمة الثورة يرون الله . فاذا « **الكائن الاعلى** » ، الذى اهتدى اليه مكسميليان ، يفيض عليهم من لهبه .. فأحبوه ، وآمنوا به .

وكان مقعد المتهم قد ابدل بمنصة كبيرة تتسع لخمسين شخصا . فان المحكمة لم تعد تنظر القضايا الا جملة . وأصبح المدعى العام يضم ويدين فى القضية الواحدة ، اناسا لم ير أحدهم الآخر ـ فى الغالب ـ الا فى المحكمة .. وللمرة الاولى ، فيصر على انهم شركاء . وراحت المحكمة تقضى ـ بالسهولة المرعبة التى يتيحها القانون العرفى ـ فى اولئك المتهمين بالتآمر ، الذين كانوا فى السجون فى اعقاب محاكمات انصار « دانتون » و « الكومون » ، وارتبطوا بهؤلاء بأى مظهر أو فكرة . ولمعرفة اية مؤامرة ضد الجمهورية يثيرها

ذهب الاجنبى ، حددت صفتان رئيسيتان ، هما الاعتدال فى غير الاوان المناسب ، والتطرف المتعمد المرسوم .. وكذلك لمعرفة جريمة دانتون ، وجـريمة الانتماء الى « هيبير » ، جمعوا بين امراتين متعارضتين .. ارملة «كاميى ديمولان» ، لوسـيل اللطيفة .. وارملة الهيبيرتى « مومورو » ، التى كانت يوما معبودة ، وكانت مثالا للمرح . **فوضعت المرأتان - عن عمد وتدبير - فى سجن واحد ، حيث راحتا تبكيان معا على مقعد حجرى واحد ، ثم سيقتا معا - وفقا لخطـة مرسومة - الى المقصلة . فكانتا مثالا بارعا حقا للمساواة كما تخيلها - بلا شك - عقل أحد رجـال القانون** .. وقد رسم الخطة واسبغ شرفها على مكسـميليان (٨٨) . فقد اصبحت تعزى الى هذا الرجل - ممثل الشـعب - كافة الاحداث التى كانت تجرى فى الجمهورية - سـواء كانت سارة او سيئة - وكل القوانين ، والقيم الخلقيـة ، وتتابع الفصول ، والمحصولات ، والامراض .. وهو ظلم كان ذلك الرجل - الضئيل » الأعجف ، المعنى بأناقته - يستحقه ، اذ كان شديد البطش بالشعب ..

***

كانت المحكمة - فى ذلك اليوم - تتعجل الفراغ من فريق من المتهمين فى مؤامرة السجون الكبرى .. حوالى الثلاثين من المتامرين من (اللوكسمبورج) ، كانوا يبدون منتهى الانصياع كمسجونين ، ولكنهم كانـوا من غلاة الملكيين والاتحاديين .. وكان الاتهام بأسره يرتكز ارتكازا مطلقا على شهادة واش وحيد . ولم يكن المحلفون يعرفون كلمة من القضيـة ، بل كانوا يجهلون اسماء المتهمين انفسهم . واذ القى جاميلان

---

(٨٨) المعروف ان «ديمولان» كان يرجو انتهاء الارهاب ، اما «هيبير» فكان من دعاة العنف .. ومن هنا نفهم «المساواة» بين زوجتيهما فى المصير .

نظرة على المتهمين ، عرف بينهم « فورتونيه شاسانى » .. كان حبيب جولى قد هزل لطول سجنه ، وشحب لونه ، وبدت قسماته اكثر صلابة تحت الضوء الكئيب الذى كان يغمر القاعة .. بيد انه ظلّ محتفظا بابائه وببعض كبريائه . والتقت نظراته بنظرات جاميلان ، فاذا بها تفيض ازدراء .

ونهض جاميلان ، وقدتولاه غضبهادىء ، فطلب الكلمة ، وشرع يقول وعيناه معلقتان بتمثال نصفى لبروتوس العريق« كان يطل على المحكمة : « ايها المواطن الرئيس ، بالرغم من وجود وشائج بينى وبين أحد المتهمين - واذا شئتم فهى وشائج مصاهرة - اعلن اننى لن انسحب . فان البروتسين لم ينسحبا عندما كان لزاما عليهما - من اجل سلامة الجمهورية ، او قضية الحرية - ان يدان ابن ، او يطعن أب » . (٨٩)

وعاد الى الجلوس ، فغمغم شاسانى وهو يصر على أسنانه : « ها هو ذا نذل بديع ! » . وظل الجمهور فاترا ، أما عن سأم من الشخصيات المبالغة فى تساميها ومثاليتها ، واما عن اطمئنان الى أن جاميلان انتصر بسهولة بالغة على مشاعره الطبيعية . بينما قال الرئيس : « أيها المواطن جاميلان ، ان القانون ينص على أن كلّ انسحاب يجب أن يصاغ كتابة ، قبل فتح باب النقاش بأربع وعشرين ساعة . وفيما عدا ذلك ، فليس ثمة ما يدعو الى انسحابك ، فان المحلف الوطنى فوق العواطف » !

---

(٨٩) البروتسان : «لوشيس جونيوس بروتس» ، الذى اقام الجمهورية فى (روما) سنة ٥٠٩ قبل الميلاد . وقد تآمر أولاده على الجمهورية فلم يحجم عن قتلهم .. و «ماركوس جونيوس بروتس» الذى احتضنه «يوليو قيصر» فكان فى مكانة الابن منه - ومع ذلك تآمر ضده ، وكان ممن طعنوه عند اغتياله .

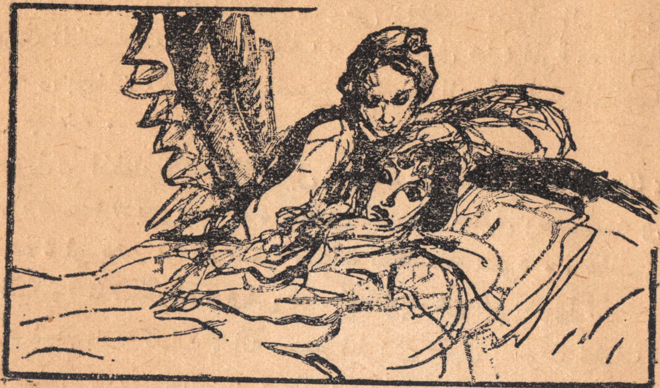
وتم استجواب كل متهم فى ثلاث دقائق أو أربع . وانتهى التحقيق الى الحكم بالاعدام للجميع . وأدلى المحلفون باصواتهم : أما بالكلام ، أو بايماءة من الرأس ، أو بصيحة . فلما جاء دور جاميلان للادلاء برأيه ، قال : « جميع المتهمين مدانون ، والقانون صريح » .

وما أن هبط سلم القصر ، حتى اعترضه شاب فى حلة ذات لون أخضر زيتونى ، بدا فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره ، فوقف فجأة أمامه . وكان يرتدى قبعة مستديرة ، مزاحة الى مؤخرة رأسه ، وقد بدت حافتها كاطار أسود حول رأسه الشاحب الجميل . وصاح الشاب بصوت يفيض غضبا وقنوطا ، فى وجه المحلف : « **أيها النذل ! الوحش ! القاتل !.. ألا اضربنى يا جبان !.. اننى امرأة ، فمر باعتقالى ، ومر بسوقى الى المقصلة !.. يا قابيل ، اننى أختك !** »

وبصقت جولى فى وجهه .. وكان القوم – من حملة الشارات الثلاثية الالوان ، ومن السانكيلوت – قد فقدوا يقظتهم الثورية ، وخفتت حدة تحمسهم الوطنى ، فلم تحط بجاميلان والمعتدية عليه سوى حوكات مضطربة ، متخاذلة .

وشقت جولى طريقها وسط المتجمعين ، وغابت فى الظلام .

الفصل الثالث والعشرون



• **استبد** الاعياء بايفاريست جاميلان ، ولكنه لم يقو على أن يرتاح .. فقد استيقظ واثبا – أربعا وعشرين مرة فى الليل – من نوم ملىء بالاحلام المزعجة . **ولم يتح له أن يحظى بالنعاس لبضع ساعات ، الا فى الحجرة الزرقاء ، بين أحضان ايلودى . وكان يتكلم ويصيح فى نومه ويقظته ، ولكنها لم تستطع أن تفقه شيئا من أقواله .**

وفى ذات صباح ، استيقظ وقد هده الاعياء وأحاله الضعف طفلا ، بعد ليلة رأى فيها الاخوات اومنيد (٩٠) .

(٩٠) مأساة اخيل ، احدى القصص الاغريقية الثلاث التى تؤلف ثلاثية «أوريست» . وهى تروى وصول اوريست الى أثينا التى استلت منه غضب الاخوات «ارينيس» ، اللائى اصبحن الأخوات «اومنيد» . وهن – فى الاساطير – بنات الارض ، الموكلات بالعقاب من الجرائم الانسانية . وكانت شعورهن مجدولة بالثعابين ، ويحملن فى يد مشعلا محرقا ، وفى الاخرى خنجرا . ويقصد المؤلف بايراد هذه التورية ان يكشف من شعور ايفاريست – فى دخيلته – بالذنب والاجرام .

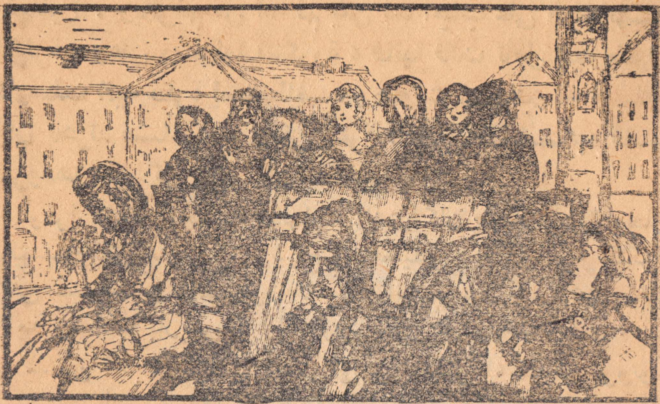
وتخلل الفجر ستائر الحجرة بأشعته الباهتة . وكان شعر ايفاريست – المهدل على جبينه – يحجب عينيه بعصابة سوداء .. وراحت ايلودى – وهى واقفة بجوار السرير – تفرق الخصلات النافرة بلطف ، وهى – فى هذه المرة – تتأمل التعس بحنان الاخت ، وتمسح بمنديلها العرق البارد المتفصد من جبينه .

وتذكر اذذاك المنظر الجميل المأخوذ عن قصة «أوريست» ، كما وضعها « يوريبيد » ، والذى كان قد حاول رسمه فى لوحة ، لو قدر له أن يتمها لكانت تحفة عمره .. منظر « اليكترا » المنكودة ، وهى تمسح الزبد عن فم أخيها !

وخيل اليه كذلك ، انه سمع ايلودى تقول بصوت لطيف : « اصغ الى ياأخى العزيز ، وأنت بعد مسيطر على عقلك .. »

وفكر فى نفسه : « على اننى لم أكن قط عاقا . بل اننى – على النقيض – ارقت دم أعداء وطنى الدنس ، بدافع من الحب البنوى » !

الفصل الرابع والعشرون



• لم تكن لمؤامرة السجون نهاية . وغصت منصة المتهمين المدرجة بتسعة وأربعين متهما . وكان « موريس بروتو » يشغل الطرف الايمن من أعلى درجة ، وهو مركز الشرف !.. وقد ارتدى ردينجوته الذى نظفه بعناية - فى اليوم السابق - ورتق الجيب الذى كان ديوان « لوكريس » قد أبلاه على طول الزمن . والى جواره كانت المرأة « روشمور » بأصباغها ومساحيقها ، بادية الاشراق ، ورهيبة فى الوقت ذاته . ووضع الأب لونجمار بينها وبين الفتاة اثينائيس ، التى كانت قد استردت نضرة صباها فى سجن « المادلونيت » .

وكان الشرطة قد دسوا على الدرجات أناسا لم يكن المتهمون يعرفونهم ، وربما لم يكن بينهم من يعرف الآخر ، أو يعرف عنه شيئا .. ومع ذلك فقد كانوا جميعا - من

برلمانيين وصحفيين ونبلاء سابقين وبورجوازيين وبورجوازيات متآمرين !.. ولمحت المواطنة روشمور «جاميلان» على مقعد المحلفين . **وبالرغم من انه لم يكن قد أجاب على خطاباتها المؤثرة ، وعلى رسائلها المتكررة ، فانها ظلت تأمل فيه خيرا ، فأرسلت اليه نظرة استعطاف ، وحاولت ان تبدو له جميلة ، وأن تحرك مشاعره . ولكن نظرة القاضي الشاب قضت ببرودها على كل وهم كان يداخلها .**

وقرأ كاتب الجلسة الاتهام ، الذى كان طويلا برغم ايجازه بالنسبة لكل متهم .. وشرح فى تلخيص عام المؤامرة المنكرة ، التى نسجت فى السجون لاغراق الجمهورية فى دم ممثلى الأمة وشعب باريس . واذ اورد دور كل واحد ، قال :

ـ من اخبث مؤلفى هذه المؤامرة المنكرة ، المدعو بروتو ، سيد ديزيليت سابقا ، وجامع الاموال فى عهد الطاغية . فان هذا الرجل الذى امتاز ـ حتى فى عهد الطغيان ـ بمسلكه المنحل ، دليل اكيد على ان الاباحية وسوء الاخلاق هما اكبر اعداء حرية الشعوب وسعادتها .. والواقع ان هذا الشخص ـ بعد ابتزازه الاموال العامة ، وتبديده قسطا كبيرا من قوت الشعب على الفجور ـ قد اشترك مع خليلته القديمة ، المراة روشمور ، فى مراسلة المهاجرين ، واطلاع عملاء الاجنبى ـ فى غدر وخيانة ـ على احوالنا المالية ، وتحركات جيوشنا ، وتطورات الرأى العام .. **وقد كان بروتو ـ فى هذه الفترة من حياته المشينة ـ يعيش فى البغى مع عاهر التقطها من وحل شارع (فرومينتو) ، هى الفتاة اثينائيس .. وقد استغلها بسهولة فى اغراضه ، واستخدمها فى التحريض ضد الثورة بصيحات بذيئة واقوال مثيرة وقحة .**

« ان بعض أقوال هـذا الرجل المنحوس تبين لكم بجلاء أراءه الوضيعة وأغراضه الشريرة . ففى عرض الحـديث عن هـذه المحكمة الوطنية ، المنعقدة اليوم لمحاسبته ، قال فى غير حيـاء : « ان المحكمـة الثورية تشبه مسرحيـة من مسرحيات وليم شكسبير ، تمتزج فى مناظرها أدمى الفواجع وأكثر المزح سماجة » ! .. وكان لا يفتأ يبشر بالالحاد كأضمن وسيلة لجر الشعب والقائه فى وهـدة الانحطاط الخلقى .

وفى سجن (الكونسييرجيرى) ـ حيث كان سجينا ـ راح ينعى على جيوشنا الباسلة انتصاراتها ويعتبرها من أكبر المصائب ، وعمد الى القاء الشبهات على أكثر قادتنا وطنية ، ويتهمهم بالعمل لأغراض طغيانية . فكان يقول بلهجة بذيئة يعف القلم عن نقلها : « انتظروا .. أجل ، ارتقبوا أن يقدم يوما أحد حملة السيف هؤلاء ـ الذين تدينون لهم بنجاتكم ـ على ابتلاعكم كما ابتلعت البومة الضفادع ، فى الأساطير » .

واستطرد قرار الاتهام ، على هذا النسق :

ـ وليست المرأة روشمور ، النبيلة السابقـة وخليلة بروتو ، أقل منه اثما . فهى لم تكن تراسل الأجنبى فحسب ، ولم تكن أجيرة « بيت » فقط ، ولكنهـا كانت متواطئة مع رجال أشرار ـ من أمثال جوليان (دى تولوز) وشابو ـ وعلى اتصال ببارون باتز السابق . **وقد ابتكرت مع هـذا النذل كافة ألوان الحيل لتخفيض قيمة أسهم شركة جـزر الهند ، ثم شرائها بالبخس ، ورفع قيمتها ـ بعـد ذلك ـ بمكائد عكس الأولى ، والقضاء بذلك على الثروة الخاصـة والثروة العامة** . وفى سـجنى (لابورب) و (بمادلونيت) لم تكف عن التآمر ، وعن التحريض ، وعن العمل بأساليبها المفسدة للتأثير على القضاة والمحلفين .

« أما لويس لونجمار ، النبيل السابق والكبوشي السابق ، فقد حاول – منذ وقت طويل – الافتراء والاجرام ، قبل أن يقوم بأعمال الخيانة التى يحاسب عليها هنا . وكان يعاشر الفتاة « جوركو » – المسماة أثينائيس – معاشرة مخزية ، تحت سقف بروتو المذكور .. فهو شريك لهذه الفتاة ، ولهذا النبيل السابق . ولم يكف – أثناء سجنه فى (الكونسييرجيرى) عن كتابة اساءات متعمدة للحرية وللأمن العام .

« ومن الحق أن نقول – بمناسبة « مارت جوركو » ، المسماة أثينائيس – أن الفتيات البغايا هن أفدح كارثة تحيق بالآداب العامة التى يلحق بها الامتهان ، وهن الوصمة التى تلوث المجتمع . ولكن ، ما جدوى الاطالة فى الحديث عن جرائمها المنكرة ، اذا كانت المتهمة تعترف فى غير حياء ؟.. »

واستطرد تقرير الاتهام – بعد ذلك – مستعرضا المسجونين الآخرين الخمسة والأربعين ، الذين لم يكن بروتو ، ولا الأب لونجمار ، ولا المواطنة روشمور يعرفون عنهم شيئا سوى أنهم قد رأوهم عدة مرات فى السجون .. ومع ذلك فان هؤلاء وأولئك كانوا منطوين جميعا فى هذه المكيدة الشنيعة ، التى لم يكن لها مثيل فى تواريخ الشعوب .

وانتهى الاتهام الى طلب عقوبة الاعدام لجميع المتهمين .

***

وكان « بروتو » أول من استدعى للاستجواب .

– هل كنت تتآمر ؟

– كلا ، لم أكن أتآمر . كل ما ورد فى قرار الاتهام – الذى سمعته لفورى – افتراء .

ـ أترى ؟ .. ها أنتذا تتآمر الآن ـ فى هذه اللحظة ـ ضد المحكمة .

وانتقل الرئيس الى المرأة روشمور ، التى أجابت بانكارات مستميتة ، وبالدموع والضراعات .

أما الأب لونجمار ، فكان قد فوض أمره نهائيا الى الله ، حتى انه لم يحضر معه دفاعه المكتوب . وراح يجيب عن كل الأسئلة التى وجهت اليه بروح الاستسلام . ولكنه احتد فجأة ـ حين نعتـه الرئيس بالكبوشى ـ وصاح : « لست كبوشيا ، بل أنا قس ورجل دين ، من المذهب البرنابى » . فأجاب الرئيس ببساطة : « سيان ! »

ورمقـه الأب لونجمار فى أنفة ، وقال : **« لا يمكن للمرء أن يتصور خطأ أغرب من الخلط بين كبوشى ورجل دين من مذهب البرنابيين الذى يستمد تعاليمه من القديس بولس الرسول بالذات ! »** .. ودوت فى القاعة الضحكات والصفير . وأخذ الأب لونجمار هذه المظاهر الساخرة على أنها استهجان لقوله ، فأعلن أنه على استعداد لأن يموت عضوا فى طائفة القديس برنابيه ، الذى يطوى قلبه على تقديسه .

وسأله الرئيس : « هل تقر بأنك كنت تتآمر مع الفتـاة جوركو ـ المدعوة أثينائيس ـ التى كنت تؤثرها بالمعـاشرة المستهجنة ؟ » .. وعند هذا السؤال ، رفع الأب لونجمار عينيه الى السماء بنظرة مليئـة بالشجن ، وأجاب بصمت أفصح عن دهشة نفس تقية ، ووقار رجل دين يخشى أن ينطق بأقوال غير مجدية .

ووجه الرئيس سؤاله الى الشابة أثينائيس : « أيتهـا الفتاة جوركو ، هل تقرين بأنك كنت تتآمرين مع بروتو ؟ » .. فأجابت برقة ولطف : « أشهد ضميرى على أن السيد بروتو

لم يفعل سوى الخير . انه رجل ليت أمثاله كثيرون ، وليس هناك من يفضله . والذين يقولون عكس هذا انما يخطئون . وهذا كل ما أملك قوله » .. وسألها الرئيس عما اذا كانت تقر بأنها كانت تعاشر بروتو فى فسق . وكان عليه أن يشرح لها هذا التعبير الذى لم تسمعه من قبل . **ولكنها ما كادت تعى ما كان يرمى اليه ، حتى أجابته بأن الأمر كان متوقفا عليه ، ولكنه لم يطلبه !!**

وتعالت الضحكات فى المحكمة ، فتوعد الرئيس الفتاة جوركو بعدم سماع أقوالها ، اذا أجابت ثانية بهذه السخرية . واذذاك انطلقت تنعته بالجبان ، المنتفخ الأوداج ، الفاسق . وتقيأت عليه وعلى القضاة والمحلفين سيلا من الاهانات ، حتى اضطر الشرطة الى انتزاعها عن مقعدها ، واخراجها من القاعة .

واقتضب الرئيس — بعد ذلك — استجواب المتهمين الآخرين ، حسب ترتيبهم على المنصة . فأجاب شخص يدعى « نافينت » بأنه ما كان يملك أن يتآمر فى سجن لم يقض فيه سوى أربعة أيام . وقال الرئيس ان هذه الاجابة تستحق الاعتبار ، ورجا المواطنين المحلفين أن يزنوها فى حسابهم . وأجاب شخص يدعى « بيلييه » عين الاجابة ، فوجه الرئيس الى المحلفين عين اللفتة لصالحه .. وأول البعض هذا الكرم من القاضى بأنه منبعث عن انصاف مشكور .. وأوله بعض آخر على أنه أجر عن الوشاية .

وتكلم نائب المدعى العام ، فلم يزد على أن أسهب فى قرار الاتهام ، ثم وجه هذه الأسئلة : « هل ثبت أن موريس بروتو ، ولويز روشمور ، ولوى لونجمار ، ومارت جوركو — المدعوة أثينائيس — وأوسيب روشيه ، وبيير جايتون —

فابوليـــه ، ومارسيلين ديكورنى ، الخ الخ .. **قـــد ألفوا مؤامرة هدفها القتل ، والمجاعة ، وتزييف النقود والأوراق المـالية ، وافساد أخلاق الشعب وروحـه ، واثارة الفتن فى السجون .. بغرض اشعال حرب أهلية ، وحـل نظام تمثيل الأمة ، واعادة الملكية ؟ »**

ولجأ المحلفون الى غرفتهم للتداول ، فاتفقوا بالاجماع على الادانة بالنسبة لجميع المتهمين ، ما عدا المدعوين « نافيت » و « بيليبه » ، اللذين اعتبرهما الرئيس – وحـــذا المدعى العام حذوه – خارج القضية . وعبر جاميلان عن حـكمه بهـذه العبارات : « ان ثبوت ادانة المتهمين يفقأ الأعين ، وعقابهم ضرورى لسلامـة الوطن ، وخليق بهم أن يطلبوا بأنفسهم العقـاب بوصفه الوسـيلة الوحيـدة للتكفير عن جرائمهم ! »

ونطق رئيس المحكمة الحكم فى غياب أولئك الذين كان يعنيهم . ففى تلك الأيام الحافلة ، كان المدانون لا يستدعون ثانية ليقرأ عليهم الحكم ، برغم ما نص عليه القانون . وذلك خوفا – ولا ريب – من أن يؤثر القنوط الذى يستولى على مثل هذا العدد الكبير من الأشخاص ، على الحضور . **فيالها من خوف لم يكن له داع ، اذ كان انصياع الضحايا – فى تلك الأيام – بالغا ، وعاما ! .. وكان كاتب المحكمة يهبط ليقرأ الحكم على المدانيين فى «زنزاناتهم» ، فكانوا يسمعونه فى صمت ، وسط السكينة التى كانت تجعلهم أشـبه بأشجار أعـدت لتجتث !**

وأعلنت المواطنة روشمور انها حبلى . فدعى لعيادتهـا طبيب كان – فى الوقت ذاته – محلفا . وحملت الى «زنزانتها» مغشيا عليهـا .

وتنهد الأب لونجمار ، قائلا : « آه ! ان هؤلاء القضاة خليقون بالرثاء : فان حالهم العقلية متداعية .. انهم يخلطون بين كل الأشياء ، ويأخذون البرنابى على انه كبوشى » !

***

وكان تنفيذ الحكم مقررا فى اليوم ذاته ، عند سيدان الجذع المقلوب (ترون رنفرسيه) . ومكث المحكوم عليهم — وقد غصبوا على التزين ، وقصت شعورهم ، وقدت أقمصتهم — فى انتظار الجلاد ، مكدسين كالقطيع فى قاعة صغيرة ، يفصلها عن غرفة كاتب المحكمة سياج زجاجى . وما أن وصل الجلاد وأعوانه ، حتى وضع « بروتو » علامة عند الصفحة التى أنتهى اليها من « لوكريس » ، وأقفل الكتاب فى سكون ، ودفعه فى جيب « ردينجوته » ، وقال للبرنابى : « لا يثير غيظى ، أيها الأب الموقر ، سوى اننى لن يتاح لى أن أضلك . لسوف نرقد معا رقدتنا الأخيرة ، ولن أملك أن أجذب كمك ، وأن أوقظك لأقول لك : أترى ؟ .. لم يعد لك شعور ولا ادراك ، فأنت بلا حياة .. وان الذى بعد الحياة ليشبه ما قبلهـا ! »

وود أن يبتسم ، ولكن ألما فظيعا خنق قلبه وأحشاءه ، فكاد يهوى الى الأرض . على انه سرعان ما تمالك نفسه وقـال : « اننى أطلعك على ضعفى يا أبت .. اننى أحب الحياة ، ولا أتركها دون أسف وحسرة ! » . فأجاب القس فى ترفق : **« لعلك أشد منى شجاعة ياسيدى ، ومع ذلك فأنت أكثر منى بغضا للموت . ما معنى هذا ، اللهم الا اننى أرى النور الذى لم تعد أنت تراه ! »** .. فقال بروتو : « من الممكن أيضا أن يكون معناه أننى آسف على الحياة ، لأننى

استمتعت فيها بأكثر مما أستمتعت أنت ، يا من جعلتها أشبه بالموت ! » . وقاب الأب لونجمار ، وقد شحب وجهه : « اننا فى لحظة عصيبة ياسيدى . فليساعدنى الرب ! .. من المؤكد اننا سنموت بدون معونة روحية ، فلا بد انني — فى الأيام الخالية — قد تلقيت الأسرار القدسية بتراخ وبقلب جاحد ، حتى ان السماء تمنع عنى اليوم معونتها ، وأنا أشد ما أكون حاجة اليها » .

وكانت المركبات فى الانتظار ، فألقى فيها المحكوم عليهم ، وأيديهم مغلولة . ودفعوا بالمراة « روشمور » — التى لم يعترف الطبيب بحملها — فى احدى المركبات . ووجدت بقية من قواها ، مكنتها من أن تتأمل حشد النظارة ، آملة — حتى اللحظة الأخيرة — فى أن تصادف منقذا . وكانت عيناها تفيضان ضراعة .. وبدا الحشد أقل ازدحاما مما كان فى الأيام السالفة ، وتحمس القوم أقل حدة . فلم تكن هناك سوى بضع نسوة رحن يهتفن : « الى الموت ! » ، أو يسخرن من أولئك المساقين للموت . اما الرجال فقد هزوا أكتافهم ، واشاحوا بوجوههم ، ولاذوا بالصمت .. سواء عن حكمة ، أو عن احترام للقانون .

وسرت فى القوم رجفة ، حين اجتازت «أثينائيس» الباب ، فقد بدت كأنها طفلة . ونكست رأسها امام رجل الدين ، وقالت : « سيدى القس .. باركنى ! » .. وتمتم الأب لونجمار بالعبارات المقدسة فى وقار ، وقال : « لقد ترديت يا ابنتى فى زلات كبيرة ، ولكن .. لعلنى لا املك أن ارفع الى المولى قلبا أكثر بساطة من قلبك ! »

واعتلت المركبة بخفة . وهناك ، شدت صدرها ورفعت رأسها فى شمم ، وهتفت : « ليحى الملك ! » . ثم أشارت لبروتو بايماءة خفيفة ، ترشده الى مكان خال بجوارها .

فساعد بروتو القس على الصعود ، واتخذ مكانه بين رجل الدين والفتاة البريئة .

وقال الأب لونجمار للفيلسوف الابيقورى : « أسألك جميلا ياسيدى .. ادع هـذا الرب ـ الذى لم تعد تؤمن به ـ من أجلى .. فليس ثمة ما يقطع بأنك لست أقرب اليه منى أنا ، فنحن فى لحظة يحق فيهـا أن تراجع نفسك ، ولن تحتاج لأكثر من ثانية كى تصبح الابن المقرب الى الرب . صل من أجلى ياسيدى ! »

وما أن تحركت العجـلات ـ فى صريف ـ على الطريق الطويلة المرصوفة ، حتى استغرق القس فى تلاوة صـلاة الاحتضار ، بقلبه وشفتيه . وراح « بروتو » يسترجع من الذاكرة ابياتا شعرية عن الطبيعة ، ويحاول أن يتجلد ـ برغم ما كان يعانى من قيوده ومن ارتجاج العربة البشعة ـ وأن يتظاهر بأنه كان خلوا من الهموم .. والى جـواره ، كانت اليثائيس مزهوة بأنها ستموت ميتة ملكة فرنسا ، فراحت ترمق القوم بنظرة متعالية .. والمالى الشيخ يتطلع الى نحرها الأبيض الغض ، فيتحسر على نور النهار !

الفصل الخامس والعشرون

• **بينما** كانت المركبات منطلقة ـ يحيط بهـا الحرس ـ نحو ميدان (ترون رنفرسيه) ، تحمل بروتو وزملاءه الى الموت ، كان ايفاريست يجلس مستغرقا فى التفكير ، على مقعد فى حديقـة (التويلرى) .. كان فى ارتقاب « أيلودى » ، والشمس تميل نحو الأفق ، مرسلة سهامها الملتهبة ، خلال أشجار الكستناء الكثيفة . وعنـد مدخل الحديقة ، كان تمثال « الشهيرة » علي جوادها المجنح ، وهي تنفخ بوقهـا

الازلى .. وباعة الصحف يصيحون بنبأ انتصار « فلورو » العظيم .

وقال جاميلان لنفسه : « أجل ، النصر لنا ، وقد دفعنا الثمن ! »

ورأى بعين خيالة القادة المسيئين ، يجرون ظلالهم المقضى عليها بالفناء ، فى الغبار الملطخ بالدماء ، فى هذا الميدان الذى أعدموا فيه .. ميدان الثورة . وابتسم بزهو ، وقد دار بخلده أنه لولا أعمال القسوة — التى ساهم فيها — لكانت جياد النمسويين تقتات الآن على قشور هذه الأشجار ! ..

وصاح فى دخيلة نفسه : « أيها الارهاب المبارك ، أيها القديس ارهاب ! .. فى مثل هذا الوقت من العام الماضى ، لم يكن لدينا من مدافعين سوى شجعان مدحورون ، مهلهلون .. وكانت أرض الوطن مغزوة ، وثلثا المقاطعات متمردة .. أما الآن فجيوشنا مجهزة أيما تجهيز ، مدربة خير تدريب ، تحت قيادة قادة بارعين ، تتحول الى الهجوم ، متأهبة لحمل الحرية الى العالم بأسره .. السلام يسود جميع ارجاء الجمهورية .. أيها الارهاب المبارك ! يا قديس ارهاب ! أيتها المقصلة الحبيبة ! .. فى مثل هذه الفترة من العام الماضى ، كانت المكائد تمزق الجمهورية ، واخطبوط الاتحاد يهدد بابتلاعها .. أما الآن ، فالوحدة اليعقوبية تبسط فوق الامبراطورية قوتها وحكمتها » .

ولكنه كان واجما ، وقد تخلل جبينه تغضن عميق ، وبدا فمه مزموم الشفتين . وراح يقول لنفسه : « كنا نقول : النصر أو الموت ! .. لقد كنا مخطئين ، فقد كان ينبغى ان نقول النصر والموت ! »

وتلفت حوله .. كان الأطفال يشيدون أكواما من الرمل ، والمواطنات — على مقاعدهن الخشبية تحت الأشجار — يطرزن

أو يتجاذبن أطراف الحديث ، والمارة – فى الزى القومى ، أو « بنطلونات » على الطراز الأجنبى – يفكرون فى أعمالهم أو فى ملاهيهم ، وهم عائدون الى مساكنهم . وشعر « جاميلان » بأنه وحيد بينهم ، وكأنه فى غير زمانهم ، ولا دنياهم .. فما الذى جرى اذن ؟ .. كيف أعقب حماس السنوات الجميلة عدم الاكتراث، والسأم ، وربما النفور ؟ ..
كان من الجلى أن هؤلاء الناس لم يكونوا راغبين فى سماع الحديث عن محكمة الثورة ، وقد أصبحوا يشيحون بوجوههم عن المقصلة ! .. حتى لقد نقلت المقصلة من ميدان الثورة الى أقصى ضاحية (أنتوان) ، اذ أصبحت تثير الاستهجان . ومع ذلك ، فحتى عند مرور المركبات ، أصبحت التمتمة تسرى بين الناس . بل قيل أن أصواتا ارتفعت صائحة : « كفى ! »

« كفى ، ولا يزال هناك خونة ومتآمرون ؟!.. كفى ، والواجب يدعو الى تجديد اللجان ، وتطهير المؤتمر ؟ ! .. كفى ، والأنذال يشوهون سمعة ممثلى الأمة ؟ ! .. كفى ، والتدبير يرمى الى القضاء على العدالة ، حتى فى محكمة الثورة ؟ ! .. حقا ، انه لأمر يستبشعه الفكر ، ولكنه حقيقى الى حد كبير ! .. بل ان « فوكييه » نفسه كان يدبر المكائد ، وذلك للقضاء على مكسميليان الذى ضحى من أجل نفسه – فى أبهة – بسبع وخمسين ضحية جرجرت الى الموت فى قميص العقوق الأحمر .. الى أية شفقة مجرمة تسلم فرنسا نفسها ؟ .. كان من الواجب اذن ، انقاذها ، بالرغم منها .. وكلما صاحت بالعفو ، سدت الآذان ، وهوت الضربات ! .. واحسرتاه ! .. لقد تقررت المصائر ، فاذا الوطن يلعن منقذيه .. فليلعننا ، ولكن لا بد من انقاذه !
« .. من التمادى أن نقضى على ضحايا مغمورين ، من

أرستقراطيين ، وماليين ، ومشرعين ، وشعراء ، ومن يدعى « لافوازييه » و « أندريه شينييه » .. انما الواجب القضاء على الأنذال ذوى القوة والنفوذ ، الذين يعدون العدة ـ وأيديهم مليئة بالذهب ، وهى تعاف الدم ـ لهدم الجبل .. اولئك أشياع فوشيه ، وتاليان ، وأتباع روفير ، وكاريبه ، وبوردون . يجب تخليص الدولة من كافة أعدائها . لو كان « هيبير » قد انتصر ، لانقلب المؤتمر ، ولانحدرت الجمهورية نحو الهاويات .. لو أن ديمولان ودانتون انتصرا ، لأسلم المؤتمر الجمهورية ـ وقد جرد من ميزاته ـ الى الارستقراطيين، والى مثيرى الفتن والى القادة .. لو أن أنصار تاليان وفوشيه ـ من الوحوش المترعة بالدماء والمتخمة بالاسلاب ـ انتصروا ، لغرقت فرنسا فى الجريمة والفحشاء .. انك تنام ياروبسبير ، فى حين أن المجرمين ، الذين أسكرهم الغيظ والرعب ، يدبرون موتك وجنازة الحرية . لكم تتأخران ـ ياكوثون ، وياسان جيست ـ فى كشف ستر الدسائس !

« عجبا ! .. لقد كانت الدولة القديمة ـ الوحش الملكى ـ تؤمن سلطانها بسجن أربعمائة ألف رجل فى كل عام ، وبشنق خمسة عشر ألفا ، وتمزيق ثلاثة آلاف على العجلة .. ومع ذلك ، فلا تزال الجمهورية تتردد ازاء تضحية بضع مئات من الرؤوس من أجل سلامتها وسلطانها !.. لنغرق فى الدم ، لكى ننقذ الوطن ! .. »

***

وفيما كان يفكر على هذا النمط ، أقبلت « أيلودى » مهرعة ، شاحبة ، لاهثة . وسألته : « ما الذى تبتغى اطلاعى عليه يا ايفاريست ؟ .. لماذا لم تأت الى « لامور بانتر » ، فى الحجرة الزرقاء ؟ .. لماذا اضطررتنى الى المجىء الى هنا ؟ »

ـ لاودعك وداعا أبديا !

وتمتمت بأنه كان مجنونا ، وانها لم تكن تفهمه .. فأشار بايماءة خفيفة من يده يستوقفها عن الكلام ، وقال : « **لم أعد أقوى على قبول حبك يا ايلودى ! »**

ـ صه يا ايفاريست ! .. صه !

ورجته أن يبتعدا عن مكانهما الى حيث لا تلمحهما أعين ولا تسمعهما آذان . وسارا عشرين خطوة ، واستطرد فى هدوء : « لقد قدمت لحزبى قربان عمرى وشرفى . وسأموت نكرة ، ولن أورثك ـ أيتها التعسة ـ سوى ذكرى شنيعة .. **أنحن متحابان ؟ .. أمن الممكن أن يحبنى أحد بعد اليوم ؟ .. وهل أملك أن أحب ؟ »**

ورمته بالجنون ، فقد كانت تحبه ، وباقية على حبه دائما . وكانت تتكلم بحرارة واخلاص ، ولكنها شعرت مثله تماما ـ بل أكثر منه ـ أنه كان على صواب ، فراحت تناضل ضد الواقع . وعاد يقول : « لست ألوم نفسى على شىء ، والذى فعلته ، لن أحجم عن فعله ثانية . لقد جحدت نفسى من أجل الوطن . اننى ملعون ! .. لقد أخرجت نفسى من البشرية ، ولن أعود اليها البتة . كلا ! .. ان المهمة الكبرى لم تتم بعد . آه !.. الرحمة ، العفو ؟!.. هل يغفر الخونة ؟ .. هل يرحم المتآمرون ؟ .. ان الأنذال الجاحدين يزدادون عددا ـ بلا انقطاع ـ ويخرجون من جوف الأرض ، ويتسللون من كافة الحدود : شبابا كان الأفضل لهم أن يهلكوا فى جيوشنا .. وشيبا ، وأطفالا ، ونساء ، يتوارون خلف أقنعة البراءة ، والطهر ، والوداعة .. وكلما حصدناهم ، وجدنا أكثر منهم .. **الا ترين أن من الواجب أن أنبذ الحب والهوى ، وكافة مباهج الحياة وكل ترفها ، بل والحياة ذاتها ؟! »**

ولاذت بالصمت .. كانت قد خلقت لتتذوق اللذات الناعمة . ولقد روعت – منذ أكثر من يوم – اذ أحست تحت قبلات عاشق حزين ، بنزعات جامحة ، ذات طابع دموى .. لذلك لم تحر جوابا . وتجرع ايفاريست صمتها ككأس مريرة . وعاد يقول : « انك لترين بجلاء يا ايلودى ، اننا ننحدر .. ان عملنا يلتهمنا . أيامنا – بل ساعاتنا – سنوات. ولن ألبث أن أكون قد عشت قرنا . تأملى هذه الطلعة ! أهى طلعة عاشق .. قادر على الحب ؟! »

– انك لى يا ايفاريست ، وسأحتفظ بك ! .. لن احلك ، ولن ارد اليك حريتك !

وكانت فى حديثها لهجة التضحية . ولقد شعر هو بذلك .. وشعرت هى بدورها .. وعاد يقول : « هل تستطيعين يا أيلودى ، أن تشهدى يوما بأننى عشت وفيا لواجبى ، وان قلبى كان سليما ، وروحى طاهرة ، ولم تكن لى بغية سوى الصالح العام ، واننى خلقت مرهف الحس ، حنونا ! .. هل ستقولين : « لقد أدى واجبه » ؟ .. ولكن ، لا .. لن تقولى هذا . ولست أطالبك بأن تقوليه . ألا اقضى على ذكراى ! .. ان مجدى فى فؤادى ، والخزى يحدق بى . واذا كنت قد أحببتنى ، فافرضى على اسمى صمتا أبديا » .

وفى تلك اللحظة ، القى طفل – فى الثامنة او التاسعة من عمره – بنفسه بين ساقى جاميلان . فرفعه هذا بين ذراعيه فجأة ، وقال : « لسوف تشب – ايها الطفل – حرا ، سعيدا وستدين بهذا الى جاميلان النكرة . اننى جائر لكى تكون أنت سعيدا .. اننى قاس لكى تكون طيبا .. اننى لا ارحم ، حتى يتسنى للفرنسيين جميعا – فى الغد – ان يتعانقوا ، وان يذرفوا دموع الفرح ! » .. وضم الصغير الى صدره ، واردف : « أيها الصغير .. ستكون مدينا لى بهذا

وبراءتك اذا ما صرت رجلا .. ومع ذلك ، فاذا قدر لك يوما أن تسمع أسمى ، فسوف تلعنه ! »

وأعاد الطفل الى الأرض ، فأسرع هذا وارتمى جزعا فى حجر أمه ، التى كانت قد أقبلت مهرعة بحثا عنه .. وأمسكت هذه الأم - التى كانت جميلة ، وذات جلال أرستقراطى ، فى ثوبها « اللينو » الأبيض - بصغيرها ، فى ترفع . فرمق جاميلان « ايلودى » بنظرة ضارية ، وقال : **« لقد احتضنت هذا الصغير ، ولعلى سأرسل أمه الى المقصلة ! »** . وابتعد بخطى واسعة ، تحت الأشجار المتناسقة .. وظلت « ايلودى » لحظة لا تحير حراكا ، ونظراتها مسمرة الى الأرض . ثم اندفعت فجأة وراء حبيبها ، وأمسكت به فى هياج - وهى مشعثة - وتشبثت به وكأنها تهم بأن تمزقه ، وصاحت فيه بصوت اختنق بالدم والدموع : **« ليكن ! .. ارسلنى انا الأخرى ، يا أعز حبيب ، الى المقصلة ! .. سقنى أنا الأخرى ليقطعوا رأسى ! »**

وسرت رعدة فى كيانها بأسره - فى جزع ونشوة - وهى تتصور السكين على عنقها !

الفصل السادس والعشرون

• **بينما** كانت شمس أحد الايام الاولى من «ثيرميدور»(٩١) تهجع فى فيض من الأرجوان الدموى ، راح « ايفاريست » يضرب على غير هدى - وهو مكتئب مهموم - خلال حدائق (ماربيف) ، وقد باتت من الممتلكات القومية ، التى يتردد

(٩١) ثيرميدور : الشهر الحادى عشر من التقويم الثورى . من ٢٠ يوليو الى ١٨ أغسطس . وقد شهد ٩ ثيرميدور من العام الثانى فى هذا التقويم (٢٧ يوليو ١٧٩٤) انهيار روبسبيير ، وانتهاء عهد الارهاب .

عليها الباريسيون فى فراغهم . هناك كان القوم يتناولون شراب الليمون والمثلجات . وكانت هناك جياد خشبية وحلقات للرماية ، يرتادها الشبان الوطنيون . وتحت احدى الأشجار ، كان ثمة صبى من (سافوا) ، فى ثوب بال ، تتوج رأسه قلنسوة سوداء ، وقد راح يعزف نشازا ، على طنبور ، لترقص عليها فأرة كبيرة كانت معه .. ووقف ينصت الى الموسيقى الركيكة رجل لم يفارق مرحلة الشباب بعد ، نحيل الخصر فى بزة زرقاء ، وقد ذر على شعره (البودرة) ، واصطحب كلبا ضخما .

وعرف ايفاريست فى الرجل « روبسبيير » . وألفاه شاحبا ، هزيلا ، وقد ذبل وجهه وتخللته أمارات الألم والشجن . فقال فى نفسه : « أية متاعب وأية آلام تركت طابعها على وجهه ؟ .. ما أقسى العمل من أجل سعادة الناس ! .. ترى فيم يفكر ، فى هذه اللحظة ؟ .. هل اجتذبته أنغام الطنبور الجبلية من هموم الشواغل ؟ .. أتراه يفكر فى أن بينه وبين الموت ميثاقا ، وأن ساعة الوفاء قد اقتربت ؟.. أم هو يفكر فى العودة مظفرا الى لجنة الأمن العام ، التى انسحب منها اذ سئم أن ظل مكبوح الجماح فيها - مع كوثون وسان جيست - بفضل أغلبية متمردة ؟ .. ترى أية آمال ، أو أية مخاوف تعتمل وراء هذا الوجه الذى لا يشف عن شىء ؟ »

على أن مكسيميليان ما لبث أن ابتسم للصبى ، ووجه اليه - بصوت رقيق وبشاشة - بضعة أسئلة عن الوادى ، والكوخ ، والأبوين اللذين فارقهما الصبى الفقير . ثم رمى اليه بقطعة من النقود ، واستأنف سيره . وبعد أن قطع بضع خطوات ، ارتد لينادى كلبه ، الذى لم يكد يشم عبير الفأرة ، حتى كشر عن أنيابه ، فانكمشت مذعورة : « برونت ! ..

برونت ! » . وما لبث أن غاب فى الدروب المعتمة .

ولم يقترب جاميلان من الرجل ، احتراما لوحدته . ولكنه راح يتأمل الجسم النحيل الذى توارى فى الليل ، وقال يناجيه فى نفسه : « لقد رأيت حزنك يا مكسميليان ، وأدركت تفكيرك . ان شجنك ، ونصبك ، بل ومظهر الذعر فى نظراتك .. كلها تقول : « ليت الارهاب ينتهى ، ولتبدأ الاخوة ! .. الا اتحدوا أيها الفرنسيون ، وكونوا أخيارا ، كونوا طيبين ! .. ليحب بعضكم بعضا ! » .. ليكن ! سأسعى الى غاياتك ، حتى تستطيع — بحكمتك وطيبتك — ان تقضي على ألوان الشقاق الداخلى ، وان تخمد العداوات المشبوبة ، وتجعل من الجلاد بستانيا لا يحصد سوى رؤوس الكرنب والخس .. **سأمهد وزملائي فى المحكمة لأصوات الرحمة ، بان نبيد المتآمرين والخونة . وسنضاعف يقظتنا وصرامتنا ، ولن يفلت منا مذنب واحد . فاذا ما سقطت راس آخر عدو من اعداء الجمهورية — تحت السكين — حق لك أن تلين دون أن يكون اللين ذنبا ، فترفرف البراءة والفضيلة على فرنسا ، يا أبا الوطن ! »**

وكان « المعصوم » قد ابتعد . وعند منعرج الدرب ، صادفه رجلان يلبسان قبعتين مستديرتين (٩٢) ، وسروالين حريريين ، يبدو أحدهما شرسا ، طويلا ، نحيلا ، يضع على عينه ضمادة ، ويشبه « تاليان » .. فألقيا عليه نظرة من ركن العين ، ثم تظاهرا بعدم معرفته ، ومضيا فى سيرهما . حتى اذا ما صارا على مسافة طويلة — لكى لا يسمعهما — غمغم أحدهما بصوت خفيض : **« هاهو ذا الملك .. البابا .. الرب . اجل ، انه رب ، وكاترين ثيو نبيته ! »**

— الدكتاتور ، الخائن ، الطاغية !.. ما اشبهه ببروتس .

---

(٩٢) كانت القبعة المستديرة رمزا لانصار العهد السابق على الثورة.

— الا أرتجف يا وغد ، فقد أشرفت على هاوية النهاية !
واقترب منهما الكلب «برونت» ، فصمتا ، وأسرعا الخطى .

الفصل السابع والعشرون

• **استيقظ** يا روبسبيير !.. الساعات تجرى ، والوقت الثمين ينصرم ..

وأخيرا ، نهض « المعصوم » ، فى المؤتمر ، وهم بأن يتكلم ، فى الثامن من ثيرميدور .. أتراك تشرقين ثانية ، يا شمس ٣١ مايو ؟ (٩٣) .. ويرتقب «جاميلان» ، وفى نفسه أمل . اذن فقد اعتزم روبسبيير أن ينتزع عن المقاعد أولئك المشرعين الذين امتهنوها ، والذين كانوا أعظم جرما من الاتحاديين ، وأشد خطرا من « دانتون » .. كلا ، لم يؤن الأوان بعد . وها هو ذا يقول : « لست أملك أن أقرر ازاحة كل الستار التى تحجب مأساة الظلم الغامضة ! » .. وتبددت العاصفة ، دون أن تصيب صواعقها أحدا من المتآمرين ، وان بثت الذعر فى نفوس الجميع ، حتى لقد كان من السهل أن نجد ستين شخصا ظلوا — منذ أسبوعين — لا يجسرون على أن يسلموا جنوبهم للمضاجع ! .. **لقد اعتاد ((مارا)) ان يعين الخونة بأسمائهم ، وأن يشير اليهم باصبعه . اما ((المعصوم)) فقد تردد ، ومنذ تلك اللحظة اصبح هو المتهم ..**

وفى منتدى اليعاقبة — فى ذلك المساء — غصت القاعة والردهات ، والفناء .. كان الجميع هناك ، الأصدقاء الصاخبون ، والاعداء الصامتون .. وقرأ عليهم روبسبيير

---

(٩٣) ٣١ مايو سنة ١٧٩٤ : تاريخ الانقلاب الذي ادي الى بداية عهد الارهاب .

خطابه الذى أصغى اليـه المؤتمر فى صمت رهيب ، فقابله اليعاقبة بالتصفيق والهتاف الحارين .

وقال الرجل : « هـذه وصيتى قبل الموت ، وسترونني اجرع الكأس هادئا ! » . فصاح دافيد : «سأشربها معك !» .. وصرخ اليعاقبة وهم يتفرقون دون ما قرار : « كلنا ! .. كلنا ! »

وبينما كان الموت يتأهب للانقضـاض على « العادل » ، هجع ايفاريست هجعة الحواريين فى بستان الزيتون **(٩٤)**. وفى اليوم التـالى ، ذهب الى المحكمـة ، حيث انعـقدت دائرتان . وتولت الدائرة — التى اشترك فيهـا — محاكمة واحد وعشرين من المتهمين فى مؤامرة سجن لازار . وفى تلك الأثناء ، وصلت الأنباء تقول : **« أصدر المؤتمر — بعد جلسة استغرقت ست ساعات — توجيـه الاتهام الى مكسيمليان روبسبيير ، وكوثون ، وسان جيست .. ومعهم أوجستين روبسبيير ، وليبا ، اللذان طلبا أن يشاطرا المتهمين مصيرهم. وقد أحيل الخمسة المعزولون الى المحاكمة »** .

ونمى الى القوم أن رئيس الدائرة التى كانت منعقـدة فى القاعة المجاورة — المواطن دوما — قد اعتقل وهو فى مقعده أثناء الجلسـة ، ولكن الجلسـة استمرت . وسمعت دقات الطبول ، ورنين النواقيس .

وتلقى ايفاريست — وهو فى الجلسة — أمرا من «الكومون» بالذهاب الى مقر مجلس المدينة (أوتيل دى فيل) ، لينضم الى المجلس العام . وبين قرع الطبول والنواقيس ، أصدر حكمه مع زملائه ، ثم هرع الى مسكنه ، فعانق أمه ، وأخـذ وشاحه .

وكان ميدان (تيونفيل) مقفرا ، فان القطاع لم يجرؤ على

(٩٤) التشبيه مستمد مما جرى للسيد المسيح عشية قرار صلبه .

أن يعلن رأيه ، أن مع المؤتمر أو ضده . ومن ثم فقد راح الناس يتسللون بجوار الجدران ، ويهرعون فى الدروب ، ثم يلوذون ببيوتهم . كان رنين النواقيس وقرع الطبول يتجاوبان مع جلبة أبواب « الزنزانات » ، وقعقعة الاقفال وهى تغلق . واختبأ المواطن دوبون النجار فى حانوته ، واعتصم البواب « ريماكل » فى مسكنه .. واحتضنت الصغيرة جوزفين الكلب « موتون » فى خوف .. وراحت المواطنة الأرملة جاميلان تشكو من غلاء الاقوات ، أس كل المصائب .

وعند نهاية السلم ، التقى ايفاريست بايلودى ، وقد تقطعت أنفاسها ، وتهدلت خصلاتها السوداء ملتصقة بخدها المبلل بالعرق .

ـ لقد بحثت عنك فى المحكمة ، ولكنك كنت قد انصرفت . الى أين أنت ذاهب ؟

ـ الى (أوتيل دى فيل) .

ـ لا تذهب الى هناك !.. لسوف تودى بنفسك الى التهلكة ، فقد اعتقل هانريو .. ولن تفعل دوائر محكمة الثورة شيئا .. ستظل دائرة (بيك) ـ التى احيل اليها روبسبيير ـ ساكنة .. اننى على بينة من هذا ، فان ابى عضو فيها . ولو أنك ذهبت الى (أوتيل دى فيل) لأضعت نفسك فى غير جدوى .

ـ أتريدين أن أكون جبانا ؟

ـ بل الشجاعة فى أن تكون مواليا للمؤتمر ، مطيعا للقانون .

ـ عندما ينتصر الأنذال ، يموت القانون .

ـ الا اصغ الى حبيبتك ايلودى ، يا ايفاريست .. استمع الى اختك ، وتعال فاجلس بجانبها ، حتى تهدىء نفسك المضطربة .

وتأملها .. ابدا لم تلح له مشتهاة كما كانت اذ ذاك !..

أبدا لم يسر هذا الصوت فى أذنيه بمثل هذا الاغواء والاغراء .

ـ خطوتان .. خطوتان فقط ، يا حبيبى !

***

واجتذبته الى بقعة خالية من الأرض ، قامت فيها قاعدة التمثال المحطم . وكانت تحيط بها مقاعد لجلوس المتنزهين والمتنزهات . وكانت ثمة بائعة تعرض قطعا من «الدانتيل» .. وبائع الشراب يحمل قدره على ظهره ، ويجلجل بناقوسه الصغير .. وفتيات يبدين مفاتنهن . وعلى ضفة النهر كان بعض الصيادين يجلسون ساكنين ، وقصباتهم فى أيديهم . وكان الجو ينذر بعاصفة ، والسماء مكفهرة . وانحنى جاميلان على سياج الضفة ، وغاص بنظراته فى الجزيرة التى تبرز كأنها مقدم سفينة ، وأخذ يصغى الى عزيف الريح وحفيف الشجر . وشعر برغبة تتسلل الى أغوار نفسه .. رغبة فى السلام ، والعزلة !

ومضى صوت ايلودى يهمس ، وكأنه صدى أفكاره : « أتذكر كيف تمنيت ، اذ رأيت الحقول ، أن تكون قاضى صلح فى قرية صغيرة ؟.. أن السعادة خليقة بأن تكون فى وضع كهذا » .

ولكنه كان يسمع النواقيس والطبول ، وجلبة جياد ومدافع تجرى على الأرض المرصوفة ، على بعد .. وكانت تطغى على حفيف الاشجار ، وصوت المرأة . وعلى خطوتين منه ، قال شاب فى عرض حديث مع مواطنة أنيقة : « هل علمت بالأنباء ؟ .. لقد نقلت دار «الأوبرا» الى (رو لالوا) .. شارع القانون » .

وفى تلك الأثناء ، كان الناس على بينة مما يجرى .. وكانت الهمسات تردد اسم « روبسبيير » فى ارتجاف ، لأنه ظل مرهوبا .. وكانت النسوة يخفين الابتسام ، اذ يسمعن

الهمسات عن سقوطه !

وأمسك ايفاريست جاميلان يد ايلودى ، ثم خلاها فجأة ، وفى حدة ، وقال : « وداعا ! .. لقد أشركتك مصيرى الرهيب ، وكدرت عليك حياتك .. وداعا » وليتك تنسيننى ! » .

فقالت : « لا تعد الى مسكنك الليلة الليلة ، على أية حال . تعال الى « لامور بانتر » . لا تدق الجرس بل ارمى نافذتى بحصاة ، وسأفتح لك الباب بنفسى » واخبئك فى مخزن الأطعمة ، فوق سطح الدار ! »

ـ اما أن ترينى مظفرا ، والا فلن ترينى بعد الآن . وداعا !

واذ اقترب من (أوتيل دى فيل) ، سمع ضجيج الأيام الجليلة يصعد الى السماء .. وفى ميدان (جريف) ، كانت قعقعة الأسلحة ، وتألق الأزياء الرسمية والأوشحة » ومدافع هانريو تتأهب .. وصعد السلم الكبير ، ووقع قائمة الحضور ، وهو يلج قاعة المجلس . كان المجلس العام للكومون » قد صوت باجماع ٤٩١ عضوا حاضرين ، فى صف المعزولين .

***

ويرسل العمدة فى طلب لائحة حقوق الانسان .. ويقرأ البند الذى جاء فيه : « عندما تنتهك الحكومة حقوق الشعب ، فان الانتقاض عليها هو أقدس وألزم الواجبات المحتومة على الشعب » .. ويعلن قاضى قضاة باريس ، أن الجمعية العامة ترى أن المؤتمر ـ بالانقلاب الذى أحدثه ـ يتعارض مع ثورة الشعب .

ويقسم أعضاء المجلس العام أن يموتوا فى أماكنهم . ويعهد الى اثنين من ضباط الحرس الوطنى بالذهاب الى ميدان (جريف) ، ودعوة الناس الى الانضمام الى المشرعين ، بغية انقاذ الوطن والحرية .. ويدور البحث وتداول الأنباء

والاعراب عن الآراء .. وليس بين هؤلاء المشرعين سوى قليل من الصناع ، فان الجمعية العامة المنعقدة هى تلك التى انتهى اليها التطهير الذى قام به اليعاقبة ، فهى تتألف من قضاة ومحلفى المحكمة الثورية ، ومن فنانين – مثل بوفاليه وجاميلان – ومن ذوى الأملاك والأساتذة العلماء ، ومن « البورجوازيين » الأثرياء ، وتجار الجملة .. رؤوس مزدانة بالبودرة ، وبطون مكرشة تزينها السلاسل الذهبية .. وقلة من النعال الخشبية و «البنطلونات» و «الكرمانيولات» ، والقلنسوات الحمراء .. هؤلاء « البورجوازيون » عديد نفرهم ، معقود عزمهم . ثم انهم – حين يفكر المرء – كل أولئك الذين يمكن أن تعدهم باريس جمهوريين صادقين ، تقريبا .. وكانوا يصمدون فى قصر مجلس المدينة ، وكأنهم على صخرة الجرية ، وسط محيط من عدم المبالاة .

ولا تلبث الأخبار السارة أن تصل .. كل السجون التى ألقى فيها المعزولون تفتح أبوابها وتطلق ضحاياها .. أوجستين روبسبير – الذى وفد الى ديلافورس – أول من يدخل (أوتيل دى فيل) فيقابل بالهتاف .. **ويتناهى الى علم القوم – فى الساعة الثامنة – أن مكسميليان فى الطريق الى « الكومون » بعد مقاومة طويلة .. وينتظره القوم .. أوشك ان يصل . هاهو ذا يصل .. هتاف جبار يهز جدران قصر البلدية العتيق . ويدخل محمولا على عشرين ذراع .. انه عين الرجل النحيل ، المعنى بأناقته ، فى سترة زرقاء وسروال أصفر .. ويجلس .. ويتكلم .**

ويأمر المجلس – عند وصوله – باضاءة واجهة مقر « الكومون » فورا ، ففيه يستقر مقام الجمهورية . ويتكلم (روبسبير) .. يتكلم بصوت رفيع ، وفى بلاغة .. يتكلم بافاضة واسهاب ، فاذا الموجودون هناك ، الذين

بحياتهم من أجل رأسه ، يلمحون – فى جزع – ان هذا رجل كلام .. رجل لجان ، ومحاكم ، يعجز عن اتخاذ قرار حاسم ، أو الاقدام على عمل ثورى .

ويدعونه الى قاعة المداولات ، فهناك اجتمع العقد : ليبا ، وسان جيست ، وكوثون . ويتحدث روبسبيير . وينصرم نصف الساعة بعد منتصف الليل ، وهو لا يزال يتكلم . وفى تلك الأثناء ، يلصق جاميلان جبينه بزجاج نافذة فى قاعة المجلس ، وينظر بعين قلقة مرتاعة ، فيرى المصابيح تبعث دخانها فى جوف الليل المظلم .. ومدافع هانريو مرصوصة أمام دار البلدية . وفى الميدان المعتم جمع حائر ، قلق .. وفى الساعة الثانية عشرة والنصف ، تقبل من ناحية شارع (لافانيرى) مشاعل تحيط بمندوب من المؤتمر اتشح بأوشحة منصبة ، فيفض ورقة ، **ويقرأ منها على ضوء اللهب الأحمر ، مرسوم المؤتمر القاضى بأن أعضاء « الكومون » المتمردين خارجون على القانون ، وكذلك أعضاء المجلس العام الذين يؤازرونهم ، والمواطنين الذين يستجيبون لندائهم .**

اعتبارهم خارجين على القانون ! .. الاعدام بدون محاكمة ! .. لمجرد الفكرة تغيض دماء أشد القوم عزما . ويشعر جاميلان بأن جبينه مثلوج .. ويرى الجموع تغادر ميدان (جريف) بخطى واسعة .

وعندما يدير وجهه ، ترى عيناه أن القاعة التى كانت تضيق بالأعضاء منذ قليل ، أصبحت خاوية تقريبا .. ولكن فرارهم لا يجديهم ، فان توقيعاتهم تشى بهم .

***

الساعة الثانية .. و « المعصوم » فى القاعة المجاورة ، يتجادل مع « الكومون » والمعزولين الحاضرين .. ويغوص جاميلان بنظراته القانطة فى الميدان المظلم ، فيرى – على ضوء

المصابيح ــ القناديل الخشبية ترتطم على ظلة حانوت البدال، محدثة صخبا .. والمصابيح فيها تهتز محاولة الاحتفاظ بتوازنها .. وريح عاتية بدأت تهب .. وان هى الا لحظة حتى ينهمر المطر مدرارا ، فيخلو الميدان تماما ، واذا الذين لم يحملهم المرسوم الرهيب على الفرار ، تشتتهم بضع قطرات من الماء .. وتبقى مدافع هانريو بدون رجال .. وعندما تبدو فى الوقت ذاته ــ على وميض البرق ــ جنود المؤتمر مقبلة من شارع (انتوان) ، ومن رصفة الميناء النهرى ، تخلو مشارف دار « الكومون » تماما .

وأخيرا ، قرر مكسميليان أن يستأنف مرسوم المؤتمر ، أمام دائرة (بيك) ، من محكمة الثورة ..

ويستحضر المجلس العام السيوف ، والمسدسات ، والبنادق .. ولكن قعقعة السلاح ، والخطوات ، وضجة الزجاج المهشم تملأ المبنى . ويجتاح جنود المؤتمر ــ وكأنهم السيل الدافق ــ قاعة المداولات ، وينسابون الى قاعة المجلس .. وتدوى طلقة ، فيرى جاميلان « روبسبيير » يهوى وقد تهشم فكه . **وينتضى هو مديته .. المدية التى ابتاعها بستة ((سو)) ، والتى قطعت الخبز ــ فى يوم من أيام المجاعة ــ لأم كريمة .. والتى احتفظت بها ((ايلودى)) رهينة ــ فى ليلة جميلة ــ فى مزرعة (أورجانى) .. ويشهر نصلها ، ثم يغيبه فى قلبه ، فيصادف النصل أحد الضلوع ، وينطوى على المقبض ، الذى ينزلق ، فيجرح أصبعين .. ويهوى جاميلان مضرجا ، بلا حراك** .. ولكنه يعانى برودة قاسية. وفى غمرة صراع رهيب ، والاقدام تطأه ، يسمع بجلاء صوت ضابط الفرسان الشاب « هنرى » ، وهو يصيح : « هلك الطاغية ، وانكسر أعوانه .. وستمضى الثورة فى طريقها جليلة ، مرهوبة ! »

ويغشى على جاميلان .. وفى الساعة السابعة من الصباح، يضمد جراحه طبيب موفد من المؤتمر .. كانت الطلبات تنهال على المؤتمر بعدم افلات شركاء روبسبيير .. فلم يكن أحد راغبا فى ان يفلت واحد منهم من المقصلة . وحمل الفنان الرسام - المحلف السابق ، والعضو السابق بالمجلس العام للكومون - على محفة الى سجن (الكونسيرجيرى) .

الفصل الثامن والعشرون

• فى **العاشر** من ثيرميدور ، بينما كان ايفاريست يستيقظ على حصير السجن ، من نعاس محموم - وقد استبد به ذعر لم يدر له تفسيرا - كانت باريس فى بهائها وسعة رقعتها ، تبتسم للشمس التى بعثت الأمل فى قلوب المسجونين .. والتجار يفتحون حوانيتهم وكلهم نشاط .. و « البورجوازيون » يشعرون بأنهم أكثر ثراء ، والشباب أكثر سعادة ، والنساء أكثر جمالا .. كل ذلك من جراء سقوط « روبسبيير » . ولم يكن يرتجف لرؤية الامبراطورية تنتقل الى الأشرار والمفسودين ، غير حفنة من اليعاقبة : والقسس الدستوريين ، وبعض النسوة العجائز . وذهب وفد من محكمة الثورة - مؤلف من المدعى العام واثنين من القضاة - الى المؤتمر لتهنئته بالقبض على الدساسين . وقررت الجمعية العامة اعادة اقامة المقصلة فى ميدان الثورة - مرة أخرى - رغبة فى أن لا يتجشم الأغنياء ، وأهل الاناقة ، والحسان ، عناء فى رؤية اعدام روبسبيير ، الذى حدد له ذلك اليوم بالذات ..

وكان الديكتاتور وأعوانه خارجين على القانون ، وكان يكفى أن يثبت اثنان من رجال مجلس المدينة تعرفهما على

شخصياتهم ، كى تسلمهم المحكمة فورا الى الجلاد . بيد أن القوم فوجئوا بمشكلة .. **ذلك أن الاثبات لم يعد ميسورا بالطرق القانونية ، لأن أعضاء مجلس المدينـة – عن بكرة أبيهم – كانوا خارجين على القانون . لذلك أباحت الجمعية العامة للمحكمة سلطة اثبات الشخصية بتعرف الشهود العاديين .**

وسيق الثالوث **(٩٥)** الى الموت مع شركائهم الرئيسيين ، وسط صيحات السرور والسخط ، والسباب ، والضحك ، والرقص .

وفى اليوم التالى ، انتزع ايفاريست من مرقده . وكان قد استرد شيئا من القوة واستطاع ان يقف على قدميه . ونقل الى المحكمة ، فوضع على المنصة التى رآها – أكثر من مرة – مثقلة بالمتهمين ، والتى كان يجلس عليها – صفا بعد صف – كثير من الضحايا ، بين نابهين ونكرات . وكانت – فى ذلك اليوم – تئن تحت ثقل سبعين فردا ، معظمهم من أفراد « الكومون » ، وبعض محلفين مثـــل « جاميلان » ، وصموا مثله بالخروج على القانون . وشهد المقعد الذى كان يجلس فيه كمحلف ، والملف الذى كان من عادته أن يستند اليـه .. والمكان الذى كان يبث منـه الذعـر فى نفوس المنكودين ! .. المكان الذى تعرض فيه لنظرات « جاك موبيل » ، و « فورتونيه شاسانى » ، و « موريس بروتو » ، وعينى المواطنة روشمور اللتين كانتا تفيضان ضراعة والتماسا ، وهى التى عينته محلفا ، فجازاها بحكم قضى باعدامها .. وعاد يتأمل المنصة التى كان القضاة يجلسون عليها ، فى ثلاثة مقاعد مريحة من « الموجنى » المكسوة بمخمل « أوتريخت » الأحمر ، وتمثالى « شاليه » و « مارا » .. وذلك التمثال

(٩٥) روبسبيير ، وسان جيست ، وكوثون .

النصفى لبروتس ، الذى أشهده يوما على قسمه . **لم يتغير شىء ما .. لا البلطات ، ولا الأغلال ولا القلنسوات الورقية الحمراء ، المعلقة على الجدران .. ولا الشتائم التى يلقيها الجمهور فى المحكمة على أولئك الموشكين على الموت .. ولا روح « فوكييه تينفيل » الدؤوب المجتهد ، وهو ينكب بحماس على أوراقه القاتلة ، مرسلا - بحكم نهائى حاسم - أصدقاء الأمس الى المقصلة .**

وأثبت المواطن « ريماكل » البواب الحائك ، وديبون النجار بميدان (تيونفيل) - وعضو لجنة المراقبة بقطاع (بون نيف)- تعرفهما على شخصية جاميلان (ايفاريست) الفنان الرسام ، والمحلف السابق بمحكمة الثورة ، والعضو السابق بالمجلس العام للكومون . وقد أدليا بهذه الشهادة فى مقابل ورقة مالية بمائة « سول » ، من خزانة القطاع .. على انهما - لما أوتياه من مشاعر الجوار والصداقة مع المطرود من حماية القانون - أبديا خجلا من أن يتعرضا لنظراته . وفيما عدا ذلك ، كان الجو حارا ، والظمأ يحملهما على أن يعجلا بالانصراف ليشربا زجاجة من النبيذ .

وبذل جاميلان جهدا كى يعتلى عربة الجلاد ، اذ كان قد فقد قدرا كبيرا من دمه ، وكان جرحه مبعث الم قاس له . وساط الحوذى فرسه الهزيله ، فانطلق الموكب وسط الصيحات الساخرة .. وتعرفت بعض النسوة على جاميلان ، فرحن يصحن : **« اذهب ، يا شارب الدماء ! .. ايها القاتل فى مقابل ثمانية عشر فرنكا فى اليوم ! .. انه لم يعد يضحك . انظروا مدى شحوبه ! ياله من جبان ! »** .. كن نفس النسوة اللاتى اعتدن - من قبل - أن ينهلن بالاهانات على المتآمرين والارستقراطيين ، وعلى المتطرفين والمتساهلين الذين أرسلهم جاميلان وزملاؤه الى المقصلة .

وعرجت المركبة الى ضفة (مورفوندو) ، وسعت ببطء الى (بون نيف) ، فشارع (لامونيه) ، ميممة صوب ميدان الثورة ، حيث كانت مقصلة « روبسبيير » . وراح الجواد يتلكأ ويتعثر ، فأخذ الحوذى يهيب به ويسوط أذنيه لحظة بعد أخرى .. والحشود الفرحة المنفعلة تعرقل سير الموكب ، والناس يهنئون الجنود الذين كانوا يشدون أعنة خيلهم . وتضاعف السباب عند ناصية شارع (أونوريه) . فان الشبان الذين كانوا يجلسون فى مطاعم الشواء الحديثة الطراز ، تقدموا الى النوافذ ، وراحوا يصيحون وأيديهم تلوح بالمناشف : « يا أكلة لحوم البشر ! يا متوحشين ! .. يا مصاصى الدماء ! »

واذ ارتطمت المركبة بكومة من الفضلات المنتنة ، لم ترفع من مكانها خلال اليومين الحافلين بالقلاقل ، ضجت الشبيبة النضرة بالضحك ، والهتاف : « لقد غاصت العربة فى الأوساخ ! .. الى القمامة أيها اليعاقبة ! »

وخيل الى جاميلان أنه قد بدأ يفهم الحقيقة ، فقال فى نفسه : « اننى أموت جزاء وفاقا ، فمن الحق أن نتلقى هذه الاهانات الموجهة الى الجمهورية ، اذ كان لزاما علينا أن نقيها اياها . لقد كنا ضعفاء ، وقد بتنا مذنبين بفضل تساهلنا . لقد خنا الجمهورية ، فنحن أهل لمصيرنا هذا .. **حتى روبسبيير - الطاهر ، القديس - قد أصيب بهذا اللين وبهذه الطراوة ، وقد محا استشهاده أخطاءه .. واقتداء به ، خنت أنا الآخر الجمهورية ، فهى تهلك .. ومن الانصاف أن أموت معها . لقد ضننت بالدم ، فليسل دمى !.. لأهلك ، فأنا أهل لذلك ! »**

وفيما كان يفكر على هذا النحو ، لمح لافتة «لامور بانتر» ، فتدافعت الى قلبه تيارات من المرارة والعذوبة .. وكان

المتجر مغلقا ، والستائر مسدلة على النوافذ الثلاث التى تعلوه .. واذ مرت المركبة أمامه،امتدت من النافذة اليسرى- نافذة الغرفة الزرقاء - يد أنثوية تحمل خاتما فضيا ، فأزاحت طرف الستار ، ورمت نحو جاميلان قرنفلة حمراء ، لم تملك يداه المغلولتان أن تمسكاها ، ولكنه مجدها كرمز وصورة لهاتين الشفتين الحمراوين المعطرتين ، اللتين كانتا ترطبان فمه . وأغرورقت عيناه بالدموع ، واهتز كيانه لهذا الوداع العذب ، الذى رافقه الى ميدان الثورة ، حيث كان النصل المضرج بالدماء !

الفصل التاسع والعشرون

• رزح (السين) تحت ثلوج شهر نيفوز (٩٦) ، وتجمدت المياه فى أحواض حدائق (التويلرى) ، والجداول، والنافورات. وأخذت ريح الشمال تثير فى الطرق أمواجا من البرد والصقيع، والخيل تنفث من خياشيمها بخارا أبيض ، وأهل المدينة يرمقون - أثناء سيرهم - مقاييس الحرارة على أبواب صانعى العدسات والنظارات . وكان ثمة عامل يمسح الضباب عن زجاج « لامور بانتر » ، فأقبل الفضوليون يلقون نظرة على الصور المرسومة بالأسلوب الحديث : روبسبير يعصر قلبا - فى كأس - كما يعصر الليمون ، ليشرب الدم .. وأشكال حيوانات ضخمة رهيبة ، ترمز الى وحشية روبسبير .. أخطبوطات ، وأفاعى ، وغيلان مخيفة ، أطلقها الطاغية على فرنسا .. كذلك شوهدت لوحات « مؤامرة روبسبير البشعة » ، و « القبض على روبسبير » و «موت روبسبير » ..

(٩٦) نيفوز : الشهر الرابع من التقويم الثورى : من ٢١ ديسمبر الى ١٩ يناير .

وبعد غداء ذلك اليوم ، دخل « فيليب ديماهى » المتجر واضبارته تحت أبطه ، واطلع المواطن « جان بليز » على لوحة خشبية كان قد أتم حفرها ، عن « انتحار روبسبيير » . وكان الحفار الفنى قد صور روبسبيير فى أبشع شكل أمكنه . ولم يكن الشعب الفرنسى قد سأم بعد هذه التحف التى تذكر بشاعة وهول هذا الرجل الذى ألقيت عليه مسئولية كافة ذنوب الثورة وجرائمها . ومع ذلك ، فان تاجر الصور — الذى كان عليما بالجمهور — أنبأ « ديماهى » بأنه قد اتجه الى تصوير الموضوعات العسكرية ، وقال : « لا بد لنا من انتصارات ، وغزوات ، وسيوف ، ورماح ، وقادة .. اننا نسعى الى المجد . وانى لأشعر بهذا فى أعماقى .. **قلبى يخفق عند تلقى مغامرات جيوشنا الباسلة . وعندما يخامرنى احساس ، فمن النادر أن لا يخامر سائر الناس ، فى الوقت ذاته !** .. ان ما يلزمنا هى صور المحاربين والنساء .. مارس وفينوس ! »

— لا تزال عندى ، أيها المواطن بليز ، صورتان أو ثلاث من رسم جاميلان ، كان قد أعطانيها لحفرها . فهل تتعجلها ؟

— البتة .

— بمناسبة جاميلان : عند مرورى بشارع (تامبل) بالأمس ، رأيت لدى أحد باعة الأثاث المستعمل — فى حانوت أمام دار بومارشيه — كافة لوحات ذلك التعس . وكانت بينها لوحته عن « أوريست واليكترا » . وأؤكد لك أن رأس « أوريست » — الشبيه برأس جاميلان — جميل حقا .. الرأس والذراعان ممتازة .. وقال لى تاجر الأمتعة انه لايتورع عن بيع هذه اللوحات لفنانين ليرسموا على ظهورها .. **مسكين جاميلان ! كان خليقا بأن يكون نابغة من الدرجة الاولى ، لو لم يتجه الى السياسة .**

فأجاب المواطن بليز : « لقد كانت له نفس مجرم . ولقد اكتشفت حقيقته فى هذا المكان بالذات ، عندما كانت غرائزه الدموية كامنة . وما صفح عنى قط .. آه ! لكم كان وغدا ! »

– بل كان مسكينا غريرا ، ومخلصا . ولكن المتطرفين هم الذين ساقوه الى الهلاك !

– ما أحسبك تدافع عنه يا ديماهى ! .. انه ليس ممن يجوز الدفاع عنهم .

– كلا .. ليس ممن يجوز الدفاع عنهم ، أيها المواطن بليز .

ودق المواطن بليز كتف « ديماهى » الجميل ، وقال : « لقد تغير الزمن ، ومن الجائز الآن مناداتك باسم « بربارو » (٩٧) ، بعد أن أصبح المؤتمر يرد الاعتبار لمن اسقطوا عن مكانتهم .. ما رأيك يا ديماهى ؟ .. احضر لى لوحة لشارلوت كورداى ! »

***

ودخلت المتجر امرأة فخمة ، جميلة ، سمراء ، متدثرة بالفراء ، فأومأت الى المواطن بليز بتحية مقتضبة ، فى غير كلفة ولا استحياء .. تلك كانت « جولى جاميلان » . ولكنها لم تعد تحمل هذا الاسم المشين ، وانما اتخذت اسم «المواطنة أرملة شاسانى» ، وارتدت تحت معطفها ثوبا أحمر ، تكريما للأقمصة الحمراء (٩٨) .

وكانت جولى قد شعرت – فى بادىء الأمر – بنفور من عشيقة ايفاريست ، فكان كل ما يمت لأخيها بغيضا لديها .

(٩٧) شارل – جان – مارى بربارو ، كان من زعماء الجيرونديين ، واعدم عند قيام حكم الارهاب ، سنة ١٧٩٤ .

(٩٨) كان المحكوم عليهم بالاعدام فى عهد الارهاب ، يساقون الى المقصلة فى اقمصة حمراء .

ولكن المواطنة بليز أوت – بعد موت ايفاريست – أمه المنكوبة، فى « تخشيبة » فوق سطح الدار . وقد لاذت « جولى » بهذا المسكن كذلك ، ثم وجدت عملا فى دار للأزياء بشارع (لومبارد) .. اذ كان شعرها القصير – على نمط الضحية (٩٩) – ومظهرها الارستقراطى ، وحدادها عوامل اجتذبت اليها عواطف الشباب الراقى . **وتقرب اليها جان بليز – الذى كانت روز تيفينان قد هجرته تقريبا – فقبلته ..** وكانت « جولى » مبقية على حبها لثياب الرجال ، كما كان شأنها فى الأيام الأليمة ، فاصطنعت لنفسها حلة بديعة . وكثيرا ما كانت تخرج – وفى يدها عصا قصيرة غليظة – لتتناول عشاءها فى بعض ملاهى (سيفر) أو (ميودون) ، مع احدى عارضات الأزياء . **ولم يكن لحزنها على الشاب المسكين – الذى حملت اسمه – أى عزاء ، ولكنها وجدت شيئا من التسلية فى اطلاق العنان لحقدها . فما أن كانت تلمح اليعاقبة ، حتى تستعدى عليهم المارة ، وهى تصيح محرضة على قتلهم** ، ولم يبق لها من الوقت ما تمنحه لأمها ، التى كانت تعتكف وحيدة ، تقرأ الصلوات والتسابيح طيلة النهار ، وقد هدتها النهاية الأليمة التى لقيها ابنها ، حتى أن الصدمة قتلت فيها كل شعور واحساس .

وكانت « روز » قد غدت الرفيقة الملازمة لأيلودى ، التى اعتادت أن تكون على وفاق مع من يتخذهن أبوها من عشيقات .

***

وتساءلت المواطنة شاسانى : « أين أيلودى ؟ » . فأومأ جان بليز معربا عن جهله بمكانها . فما كان يعرف مكان ابنته قط ، وكان هذا مسلكا ارتضاه لنفسه . وكانت جولى قد جاءت لتصطحبها لزيارة تيفينان فى (مونسو) ، حيث

(٩٩) « مودة » انتشرت تكريما لمن قضين نحبهن على المقصلة .

قطنت الممثلة بيتا صغيرا تحف به حديقة على الطراز الانجليزى. اذ كانت قد تعرفت ـ فى سجن (الكونسييرجرى) ـ الى أحد الموردين للجيش ، يدعى المواطن (مونفور) . وبما أن استبقته الى مغادرة السجن ـ بفضل مساعى جان بليز ـ حتى حصلت على عفو عن المواطن مونفور ، فعاد ـ بمجرد اطلاق سراحه ـ يمد القوات العسكرية بالأطعمة . وأخذ يضارب على أراضى حى (ببينيير) ، فاشتراها بالبخس ، وعهد الى المهندسين ليدو ، وأوليفييه ، وويلى ، فشيدوا عليها بيوتا جميلة ، وبذلك ارتفعت قيمة الأرض الى ثلاثة أمثالها ، فى ثلاثة أشهر .

ومنذ سجنه فى (اللوكسمبورج) ، أصبح مونفور عشيقا لتيفينان ، فمنحها بيتا صغيرا أنيقا على مقربة من (تيفولى) وشارع (دوروشيه) ، كان يساوى الكثير ، ولكنه لم يكلفه شيئا ، اذ أن بيع قطع الأرض المجاورة ، عوضه عن نفقاته عدة مرات . وكان جان بليز كيسا ، يرى أن من الواجب احتمال مالا دفع له ، فترك تيفينان لمونفور ، دون ما خصام معهما .

وبعد قليل من وصول جولى الى « لامور بانتر » ، هبطت أيلودى فى أقصى تبرج . وبالرغم من زمهرير الفصل ، فقد ارتدت تحت معطفها ثوبا أبيض كشف عن معظم جسمها . وكان وجهها شاحبا ، وقوامها قد نحل وهزل ، ونظراتها قد استكانت ، ولكن كل كيانها كان ينضح بالغواية .

وذهبت المرأتان الى تيفينان ، اذ كانت فى انتظارهما . وصحبهما « ديماهى » ، فقد كانت الممثلة تستشيره فى زخرفة بيتها الجديد . وكان هو متيما بحب أيلودى ، التى كانت ـ فى تلك الأثناء ـ قد أوشكت أن تقرر أن لا تطيل من عذابه . واذ مرت المرأتان بالقرب من (مونسو) ، حيث

دفنت جثث قتلى ميدان الثورة ، تحت طبقة من الكلس (الجير) .

وقالت جولى : « لا بأس بهذا فى الجو البارد . أما فى الربيع ، فان عبير هذه الأرض كفيل بأن يسمم نصف المدينة » .

واستقبلت تيفينان صديقتيها فى « صالون » مؤثث على الطراز القديم ، وقد نقش «دافيد» أرائكه ومقاعده برسومه . واكتست الجدران برســوم رومانية بارزة ، فوق تماثيل طويلة ، وتماثيل نصفية ، وثريات مطلية بالبرونز . وكانت تلبس شعرا أشقر مستعارا - بلون التبن - وقد نسق بشكل خصل ملتوية .. فان الشعر المستعار بات « المودة » فى تلك الفترة ، فكان « جهاز » العروس يضم ست قلنسوات أو اثنتى عشرة أو ثمانى عشرة منه ! .. وكانت تيفينان فى ثوب من الطراز القبرصى ، التف حول قوامها باحكام .

وبعد ان ألقت على كتفيها معطفا ، قادت صديقتيها والحمار الى الحديقة التى وضع « ليدو » تصميمهـا ، والتى لم تكن بعد سوى أشجار عارية غير منسقة واحجار .. وأطلعتهم على كهف حفره « فينجال » ، وكنيسة قوطية صغيرة لها ناقوس وهيكل ، وشلال مائى صــناعى .. وقالت وهى تشير الى مجموعة من شجر الصنوبر : **« أريد أن أقيم هنـاك نصبا ، تخليدا لذكرى ذلك المنكود بروتو ديزيليت ، فما كان بالمنسى لدى .. كان لطيفا ، وقد ذبحه الوحوش ، فبكيته . عليك أن ترسم لى - يا ديماهى - جرة فوق عامود »** . ثم أضافت لفورها : « أمر مكدر .. لقد رغبت فى اقامة حفـل راقص فى هذا الاسبوع ، ولكن جميع عازفى الكمان مرتبطون بمواعيد لثلاثة أسابيع مقدما .. فالرقص يدور كل ليلة لدى المواطنة تاليان » .

وبعد العشاء ، أقلت مركبة تيفينان الصديقات الثلاث و « ديماهى » الى مسرح « فيدو » . كان كل ما فى باريس من أناقة ولطف هناك .. النساء ، وقد نسقت شعورهن على الطراز « العتيق » ، أو طراز « الضحية » ، وارتدين ثيابا تكشف عن معظم أجسامهن ، من أقمشة أرجوانية أو بيضاء موشاة بالذهب .. والرجال فى ثياب سوداء ذات ياقات عالية جدا ، وقد غاصت ذقونهم فى ربطات عنق عريضة بيضاء .

وكان البرنامج يتألف من « فيدر » ، و « الكلب والبستانى » . وطلب الحضور جميعا النشيد الذى كان حبيبا الى النساء والشباب الطروب : « يقظة الشعب » .. فرفعت الستار ، وظهر على المسرح رجل قصير ، سمين .. ذلك كان المغنى الشهير « لاى » ، الذى غنى بصوته العذب :

« أيها الشعب الفرنسى ، يا شعب الاخوة !.. »

ودوى فى القاعة تصفيق حاد ، اهتزت له الزوائد البلورية للثريات ، فأخذت ترسل رنينا ناعما .. وسرت – بعد ذلك – غمغمات ، ثم ارتفع صوت مواطن ذى قبعة مستديرة – كان يجلس فى القاعة – مرددا نشيد « المارسيلييز » : **« هيا يا أبناء الوطن.. »** ، فطغت على الصوت صيحات مستهجنة ، ودوت هتافات : « ليسقط الارهابيون !.. الموت للعاقبة ! » .. وعاد « لاى » ليغنى – للمرة الثانية ، نشيد الثيرميدوريين (١٠٠) : « أيها الشعب الفرنسى ، يا شعب الاخوة ! .. » .

وكان التمثال النصفى لمارا ، يشاهد – فى كل قاعات المسارح – على أعمدة ، وقواعد خاصة . أما فى مسرح « فيدو » ، فكان موضوعا على قاعدة قصيرة ، الى جوار المسرح ، أمام الأطار المبنى حول المنصة . فما ان عزفت الفرقة الموسيقية اللحن الافتتاحى لأوبريت « فيدر وايبوليت » حتى

(١٠٠) انصار انقلاب شهر « ثيرميدور » الذى أطاح بالارهاب .

أشار شاب من المتأنقين الملكيين الى تمثال «مارا» على قاعدته، هاتفا : « ليسقط مارا ! » .. فردد الحاضرون عن بكرة أبيهم : « ليسقط مارا !.. ليسقط مارا ! » .. وارتفعت على الصخب أصوات تقول بلباقة : « من المخجل ان يظل هذا التمثال قائما ! »

ـ ان فضائح مارا تطغى على كل شيء ، ولا تشرفنا !.. ان عدد تماثيله يضارع عدد الرؤوس التى أراد أن يحصدها !

ـ كان ضفدعا ساما !.. نمرا !.. أفعوانا أسود !

وفجأة ، نهض شخص أنيق من النظارة ، فتسلق حافة مقصورته ، ودفع التمثال فقلبه ، وأسقطه على الموسيقيين فى ضجيج ، بين تصفيق الحضور ، الذين وقفوا على أقدامهم يرددون نشيد « يقظة الشعب » : « أيها الشعب الفرنسى ، يا شعب الاخوة !.. » . وبين أصوات أشد المنشدين تحمسا، عرفت ايلودى صوت الفارس الجميل ، الذى كان يوما كاتب محام .. هنرى ، حبيبها الاول !

***

وبعد العرض ، استدعى « ديماهى » الجميل مركبة مغلقة ، ليقل المواطنة بليز الى « لامور بانتر » . وفى المركبة ، أمسك الفنان يد ايلودى بين راحتيه ، وقال : « أتدركين يا ايلودى اننى أحبك ؟ »

ـ أصدقك ، لأنك تحب كافة النساء !

ـ انما أحبهن فيك !

فابتسمت قائلة : **« اننى أحمل نفسى عبءا ثقيلا ، اذا كان مقدرا لى أن أمثل لك كافة النساء ، بالرغم من قلنسوات الشعور المستعارة ، من سوداء ، وصفراء ، وحمراء ! »**

ـ ايلودى !.. اقسم لك ..

ـ ماذا ؟ .. أمواثيق وعهود يا مواطن ديماهى ؟.. أترا

مفرط السذاجة ، أم لعلك تظنني على قدر كبير منها ؟

ولم يحر ديماهى جوابا ، فاغتبطت لانتصارها عليه ، اذ أفحمته . وعند ناصية شارع « لالوا » ، سمعا أناشيد وهتافات .. ورأيا أشباحا تتحرك حول اتون . تلك كانت ثلة من الشباب المرح ، حرقوا تمثالاً لصديق الشعب «مارا»، عند انصرافهم من مسرح « فرانسيه » .

وفى شارع (أونوريه) ارتطمت قبعة الحوذى بصورة شوهاء لمارا ، معلقة فى مصباح . وطرب الحوذى لهذه المناسبة، فالتفت الى الراكبين « البورجوازيين » ، وروى لهما كيف أن بائع الكروش والامعاء - بشارع (مونتورجوى) - أراق الدم فى الليلة السالفة ، على رأس تمثال لمارا ، قائلا : « هذا ما كان يجب ! » .. وكيف أن الصبية - الذين لم تتجاوز أعمارهم العاشرة - قد ألقوا بالتمثال فى « البالوعة » ، فاذا المواطنون يصيحون : « ها هوذا بانثيونه ! » (١٠١)

وفى تلك الاثناء ، كانت الاصوات تنبعث من كافة المطاعم والمشارب مرددة : « أيها الشعب الفرنسى .. يا شعب الاخوة ! »

***

وعند « لامور بانتر » ، قالت ايلودى وهى تقفز من المركبة: « وداعا ! » . ولكن ديماهى راح يتوسل اليها فى لهجة ناعمة، ويلحف فى لطف بالغ ، حتى انها لم تجد من نفسها جرأة على ان تتركه لدى الباب . فقالت : « ان الوقت متأخر ، ولن تمكث سوى لحظة ! »

وفى الغرفة الزرقاء ، خلعت معطفها ، فبدت فى ثوبها الابيض القديم الطراز ، الذى كان يكشف عن كثير من جسمها .. وقالت : « لعلك تشعر بالبرد . سأشعل لك المدفأة ، فهى

(١٠١) البانثيون : مقبرة العظماء الذين يريد الشعب تكريمهم .

مهيأة ! » . وحكت القـــداحة ، ومدت الى المدفأة فتيلا مشتعلا .

وتناولها فيليب بين ذراعيه بتلك الليونة التى تكشف عن قوة ، فقاومت بلطف غريب . واذ راحت تتثنى تحت قبلاته تملصت منه قائلة : « دعنى ! » .. وحلت خصلات شعرها أمام مرآة المدفأة .. ثم لمحت – فى أسى – خاتما فى يدهـا اليسرى .. خاتما صغيرا من الفضة ، عليه صورة « مـارا » وقد أوشكت أن تنمحى ، ولم تعد واضحة . وظلت ترقبه حتى حجبته عنها الدموع المتدافعة من عينيها ، ثم خلعته برفق ، ورمته فى النار .

وكان الليل قد اكتهل ، عندما فتحت المواطنة بليز لحبيبها باب المسكن ، وقالت له بصوت خافت ، فى الظـلام : « مع السلامة يا غرامى !.. هذا موعد عودة أبى ، فاذا سمعت ضجة على السلم ، فاصعد بسرعة الى الطابق الأعلى ، ولا تهبط الا عندما لا يعود هناك خطر من ان يراك . ولكى تفتح الباب المفضى الى الطريق ، اطرق نافذة حارسة الباب ثلاث مرات . وداعا يا حياتى .. وداعا يا روحى ! »

وكانت الجمرات الاخيرة تحترق فى المدفاة .. وأسلمت ايلوذى راسها للوسادة ، سعيدة ، وسنانة !

تمت